الدكتور العلامة أحمد نسيم سوسة

ولد الدكتور أحمد نسيم سوسة في مدينة الحلة بالعراق عام 1900م توفي سنة1982

ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق

١٠ ـ أصل المسيحيين النساطرة في جبال كردستان وتسميتهم باسم آثوريين

لم يسبق أن نشب خلاف وغموض في أصل أحد الأقوام مثل الخلاف والغموض اللذين اكتنفا موضوع أصل المسيحيين النساطرة في كردستان، ولعل ذلك ناجم عن انزواء هذا الشعب في المناطق الجبلية المنيعة منذ أقدم العصور وصعوبة الوصول إلى مناطقهم مما جعلهم في وضع أمكنهم معه المحافظة على قوميتهم وعلى نفس اللغة التي كان يتكلم بها أجدادهم قبل أكثر من ٢٠٠٠ سنة، وكذلك المحافظة على كتبهم الدينية باللغة السريانية. هذا ما حمل بعض الباحثين على اعتبار كنيستهم النسطورية التي تُمارس طقوسها الدينية بنفس هذه اللغة أقدم كنيسة مسيحية لا تزال محافظة على تعاليمها الدينية الأصلية. لذلك تباينت الآراء وتعدّدت النظريات في تحديد أصل النساطرة، فقال بعضهم أنهم من بقايا النبط المسيحيين الذين هاجروا من سهول الموصل إلى جبال حيكاري وأورمية في العهد المغولي[٧٨]. وقال البعض الآخر انهم أحفاد كلداني بلاد ما بين النهرين الذين هجروا بلادهم الأصلية من جراء مضايقات الفاتحين والمغيرين ولجؤوا إلى جبال حيكاري في عهد قديم جداً، كما اعتبرهم البعض من العنصر الكردي كانوا يعيشون في جبال حيكاري في عهد قديم جداً، ولما اعتنقوا المذهب النسطوري سموا بهذا الاسم. كما ذهب بعضهم إلى أنهم اعتنقوا الديانة المسيحية في وقت متأخر، هذا على الرغم مما يثبت كونهم ساميين في قوميتهم وفي لغتهم السريانية السامية[٧٩].

وعلى الرغم من هذا الخلاف في تحديد أصل النساطرة فهناك إجماع على تسميتهم بالنساطرة عبر التاريخ، فقد عُرفوا بتسميتهم هذه منذ ظهور المذهب النسطوري في القرن الخامس للميلاد وذلك نسبة إلى نسطوريوس الذي دعا إلى

(٧٨) العقيد أمين الغمراوي، «قصة الأكراد في شمالي العراق»، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٠٢.
(٧٩) أمين زكي بك «خلاصة تاريخ الكرد وكردستان»، ص ١٣١.

اتباع تعاليم جديدة في مفهوم أصول العقيدة المسيحية (انظر ما يلي حول ذلك). وقد عرفتهم التواريخ المسيحية والكتب الطقوسية القديمة بهذه التسمية، كما عرفهم المؤرّخون العرب بهذه التسمية ذاتها في كتبهم. وقد سُموا أيضاً بالتيارية نسبة لأهم وأكبر عشائرهم (التياري العليا والتياري السفلي). وقد ظلت تسميتهم بالنساطرة مستعملة طوال القرون حتى اختار لهم رئيس أساقفة كنتربري تسمية جديدة هي اسم «آثوريين» وبالانكليزية (Assyrians) بمعنى آشوريين، وذلك حين أوفد بعثة تبشيرية إنكليزية سنة ١٨٨٦ م للتبشير بين النساطرة. وأن هذه البعثة إذ لم تستطع تحويلهم إلى اعتناق مذهبها فقد استطاعت إقناعهم بعدم لياقة التسمية النسطورية وأن تسميتهم باسم «آثوريين» ترفع من منزلتهم التاريخية في الأوساط العالمية، إذ لا بدَّ أن يكونوا أحفاد ذلك الشعب الأشوري العريق في السؤدد والحضارة. ومن بعد ذلك أخذ كل الباحثين والمبشرين من الإنكليز يجرون على هذا النحو، أي تسمية النسطوريين بالآثوريين.

وقد جاءت هذه التسمية الجديدة «آثوريين» تحريفاً لكلمة «سريان» على رأي البعض، وتحريفاً لكلمة «تياري» على رأي البعض الآخر. وإذا رجعنا للتسمية باللغة الانكليزية نجد أنه ليست هناك أية صعوبة في تحريف تسمية «سريان» إلى آشوريين، إذ يكفي اضافة حرف واحد لتصبح كلمة «سريان» (Syrian) آشوري (Assyrian). ومهما كان مصدر اشتقاق هذه التسمية الجديدة المحرّفة فإنَّ النساطرة لم يدعوا أنفسهم باسم آثوريين بمعنى آشوريين إلاَّ بعد وصول بعثة رئيس أساقفة كنتربري إلى مواطن النساطرة في منطقة حيكاري سنة ١٨٨٦ م، ثم نشرت دعاية واسعة لدعم هذه التسمية على لسان المبشّر الإنكليزي الدكتور ويكرام في كتاباته عن النساطرة[٨٠].

وفي تسمية النساطرة بالآثوريين يقول الدكتور شاكر خصباك في كتابه «العراق الشمالي» (ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ م) ما نصه: «يبدو أن اسم (آثوريين) هو تحريف للآشوريين Assyrian، قد أُطلق عليهم في أواسط القرن الماضي من قبل بعض الرحالة والكتّاب الإنكليز، ولعله كان تحريفاً لكلمة (السريان) Syrian

(٨٠) ومن كتبه العديدة في موضوع النساطرة. ويسميهم «الآشوريون»: W.A. Wigram, «An Intoduction to the History of the Assyrian Church, London, 1910; W.A. and E.A. Wigram, «Cradle of Mankind,» 1914; W.A. Wigram, «Our Smallest Ally», 1920; «Assyrian Settlement», 1922; «The Assyrians and Teir Neighbors», 1929.

باعتبارهم من الأقوام التي تتحدث باللغة السريانية. ومن الطبيعي أن تُميز تلك الأقوام بهذه التسمية نظراً لإحاطتها بمجموعات لغوية مغايرة كالمجموعات الكردية والتركية والإيرانية. غير أن هذه التسمية ما لبثت أن اقرنت على أيدي بعض الكتّاب الغربيين بالآشوريين القدماء، واعتبر هؤلاء القوم من أحفاد الاشوريين. وقد كان لمثل هذا التحول في التسمية مبررات سياسية وتاريخية. فأمّا المبررات السياسية فقد أثارها الرحالة والكتّاب الإنكليز ليثبتوا حقاً تاريخياً لهؤلاء الأقوام في منطقة الموصل الهامة، وقد أثبتت الوقائع فيما بعد قيمة تلك التسمية، إذ طالب الآثوريون بالفعل في أعقاب الحرب الكبرى الأولى بإقامة دولة لهم في شمالي العراق باعتبارهم يمتلكون حقاً تاريخياً في المنطقة. وأما المبررات التاريخية لهذه التسمية فتستند إلى كون الآثوريين ربما يكونون أساساً من منطقة الموصل بالفعل وقد غادروها فراراً من الاضطهاد في القرن الخامس عشر الميلادي والتجؤوا إلى مناطقهم الجديدة المنيعة في جبل حيكاري. ولا يمكننا الحكم بصورة علمية دقيقة على أصل القبائل الآثورية نظراً لافتقارنا إلى الدراسات العلمية الرصينة والأسانيد الثابتة البعيدة عن العاطفة والأهداف السياسية».

لقد حاول الدكتور ويكرام أن يستدل بطريقة عرض تصاوير فوتوغرافية على شبه ملامح الوجوه والتقاطيع بين الإنسان الآشوري المنقوش على الألواح الآشورية القديمة وبين تصوير أحد القسس النساطرة لدعم نظرية كون النساطرة منحدرين من الآشوريين القدماء(٨١). وإذا رجعنا للمقارنة بين الصورتين لم نجد أي شبه بينهما بغير اللحيتين. لذلك نرى ستافورد صاحب كتاب «مأساة الآثوريين» مع أنه يؤيِّد ويؤكِّد نظرية ويكرام في مجرى بحثه عدة مرات(٨٢)، إلاَّ أنه يرى في طريقة المقارنة بين التصويرين دليلاً ضعيفاً(٨٣). ويتمسك بدليله الذي يعتبره أقوى حجة من طريقة المقارنة بين الصور التي اتبعها دكتور ويكرام، فيقول إن الشعوب التي تحكم مدة من الزمن في بلد ما لا بدَّ ان تترك وراءها أثر الجنس الذي يتكوّن منه الفاتحون دون أن يتغير على الرغم مما يكتنفه من اختلاط عادة. وهذا في رأيه ينطبق على الآشوريين الذين حكموا بلاد الرافدين

---

(٨١) «The Assyrians and Their Neighbors», pp. 178-179.

(٨٢) Stafford, op. cit., pp. 13, 15, 16, 18, 19, 39.

(٨٣) Ibid., p. 19.

عدة قرون إذ تركوا أثر جنسهم بالنساطرة[٨٤]. ويضيف إلى ذلك قوله: «ومما هو أوثق صحة وأكثر تأكيداً أن هذا الأثر المتبقي لم يتغير عن الأصل إلاً قليلاً في خلال الخمسماية سنة الأخيرة لأن التزواج بين الآثوريين ومجاوريهم كان معدوماً في خلال هذه الفترة[٨٥]. ونلاحظ أن ستافورد مع تأكيده في عدة أماكن من كتابه نظرية انحدار النساطرة من الآشوريين وذلك بنعتهم «بأحفاد ذلك الشعب العظيم» وأمثال هذه النعوت يحاول في بعض الأحيان أن يعزو الاعتقاد بهذه النظرية إلى النساطرة أنفسهم، فيقول إن الآثوريين (النساطرة) يعتقدون أنهم منحدرون من الآشوريين القدماء. والحقيقة أن النساطرة لم يكونوا يعتقدون بهذه النظرية ولم تخطر ببالهم أو فكّروا فيها قبل أن يدخل الدكتور ويكرام المبشر الإنكليزي بلادهم في أواخر القرن التاسع عشر حيث لقنهم هذه الفكرة التي جاءت وفق رغبات المارشمعونية (البطريركية النسطورية) التي كانت تطمع بتشكيل دولة آثورية بزعامتها. وقد نجح الإنكليز بتعميم الفكرة وإقناع زعماء النساطرة أنهم أحفاد الآشوريين القدماء وأن لهم الحق أن يمتلكوا أرض أجدادهم، ولكن الخلافات المستحكمة بين رؤساء القبائل النسطورية وانعدام اتحاد الرأي بينهم والظروف السياسية بغير صالحهم أدت إلى فشل التخطيط البريطاني حتى تشتتوا ونكبوا بزوال كيانهم.

ويعترف المستر ادمونز الخبير البريطاني بشؤون الأكراد المعروف «بأنّ النساطرة المسيحيين قد عُرفوا في إنكلترا باسم آشوريين»[٨٦]. ويعني بذلك أن إنكلترا هي التي ابتدعت هذه التسمية وتمسكت بها فأخذ الكتّاب الأنكليز بها وتبعهم الباحثون من الدول الأخرى وهم يجهلون ما كان يقصد به الإنكليز من إطلاق اسم آثوريين على النساطرة.

ويعلق الأب فردينان توتل اليسوعي على كلام ويكرام فيقول: فقد يرى الدكتور ويكرام «أن الآشوريين أو النساطرة المقيمين في بلاد ما بين النهرين إنما هم سلالة الدولة الآشورية الكبرى التي ازدهرت نحو القرن العاشر قبل المسيح، ثم تقلص ظلها وسقطت، ولم تندثر بقاياها كلها... وما بقاياها إلاّ النساطرة

(٨٤) Ibid., p. 16.

(٨٥) Stafford, Op. Cit., p. 16.

(٨٦) بي. جي. ادمونز، «كرد وترك وعرب»، ترجمة جرجيس فتح الله، بغداد، ١٩٧١، ص ٧.

المقيمين في ديار الموصل، ويسمّي ويكرام كنيستهم (الآشورية) ويتخذ برهاناً على كونهم حقيقة أحفاد الآشوريين القدماء أنهم قطنوا على مدى الأجيال البلاد التي كانت في قديم الزمان مملكة آشور، وأن لهم تقاليد ينتسبون بها إلى الآشوريين، وأن لغتهم الآرامية في أصلها واحدة مع اللغة الآشورية، وأن ملامح وجوههم وتقاطيعها أشبه بالملامح والتقاطيع المصورة على الآثار الآشورية الثابتة إلى يومنا». ثم يضيف الأب فرديناند إلى ذلك قوله: «ولا أدري هل يقتنع الآثوريون ببراهين الدكتور ويكرام على آشورية النساطرة؟.. فإنَّهم إن انتسبوا للآشوريين، فغيرهم أيضاً ينتسب إلى ذلك الشعب القديم كالقبائل الكردية؛ وإن سكنوا بلاد آشور القديمة فالأكراد أيضاً سكنوها. أمّا ملامح التشابه بين صورة أحد النساطرة في يومنا وصورة أحد الآشوريين القدماء فليست دليلاً قاطعاً على آشوريته وكون لغة النساطرة آرامية الأصل فقد يدل أيضاً على أصلهم الآرامي»(٨٧).

وليس بخاف ما كان يرمي الإنكليز من وراء تسمية النساطرة بـ «آثوريين» من أغراض سياسية تهدف دعم حق النساطرة ببلاد آشور باعتبارهم من بقايا الآشوريين. وفعلاً أعقب ذلك أن تقدم المارشمعون رئيس طائفة النساطرة بعد الحرب العالمية الأولى بتوجيه من الإنكليز الذين كانوا مسيطرين على شؤون العراق وقتذاك بطلب إلى الحكومة العراقية لتشكيل دولة (آثورية؟) بزعامته تمتد من كفرى في جنوب كركوك إلى ديار بكر شمالاً(٨٨). ثم وجه المارشمعون وأنصاره مذكرة إلى المعتمد السامي البريطاني في بغداد ضمنوها مطاليبهم. وقد تضمنت المذكرة المطالبة بالاعتراف بهم كملّة أي شعب مقيم في العراق لا كأقلية عنصرية أو دينية وأن يُعاد لهم وطنهم الأصلي الذي كان يعرف قبل الحرب سياسياً وإدارياً بسنجق حيكاري وأن توسع حدود العراق لتشتمل تلك الأراضي. وإذا استحال هذا فإنَّهم يطلبون إيجاد موطن لهم كملّة خصوصاً لجمع الآثوريين في العراق وخارجه الذين هم من التبعة العثمانية وأن يشمل هذا الموطن مناطق زاخو ودهوك وعقرة والأقسام الملاصقة لمنطقة العمادية ومنطقة العمادية كافة، على أن تكون هذه منطقة آثورية من الناحيتين السياسية والإدارية وتجعل شبه لواء

(٨٧) «الآشوريون والنساطرة»، مجلة المشرق م٢٨ (١٩٣٠) عدد تموز ١٩٣٠، ص ٥٠٩ - ٥١٠.

(٨٨) Stafford, op. cit., p. 39.

ملحق بلواء الموصل مركزه الإداري دهوك وأن تعترف الحكومة العراقية بزعامة المارشمعون على الملّة الآثورية، زعامة سياسية ودينية. وأن يكون منهم نائب واحد في المجلس النيابي العراقي... بشرط أن يصدر بذلك قرار رسمي من عصبة الأمم وبشرط أن يقترن بإخلاص وخضوع الآثوريين للحكومتين العراقية والبريطانية[٨٩].

ومما يدل على أن مصدر هذا التوجيه والتحريض هو سلطات الانتداب الإنكليزية التي تبنت مشروع إنشاء دولة آثورية على أرض الأكراد في العراق لاستخدامها في أغراضها الاستعمارية أن تقدَّم ارنولد ويلسون الحاكم الملكي العام في العراق فأرسل في آب ١٩٢٠ برقية إلى وزارة الحرب البريطانية ضمنها طلب تحقيق هذا المشروع حيث قال فيها ما نصه: «ستتهيأ لنا فرصة لإنصاف الطائفة الآثورية بطريقة ترضاها هي وترضاها الأفكار الأوروبية وتمكننا من حل مشكلة من أعسر المشكلات الخاصة بالأقلية الدينية والجنسية في كردستان، وتخلصنا من خطر داهم على مستقبل السلم في شمالي العراق»[٩٠].

وبعد أن حول الانكليز تسمية نسطوريين إلى آثوريين وصار الآثوريون يعتبرون أنفسهم آشوريين صدرت عدة كتب آثورية وهي تسترسل بالإشادة بتاريخ الآشوريين والكلدانيين وحضارتهما على أساس أن النساطرة هم أحفاد الآشوريين والكلدانيين، وهكذا تحوَّل البحث من تاريخ النساطرة إلى تاريخ الآشوريين والكلدانيين على أساس أن كليهما تاريخ واحد. ومن أهم هذه الكتب (كلدو وآثور) للأب آدي شير صدر سنة ١٩١٢ وهو يسرد تاريخ الآشوريين والكلدانيين ويسترسل في إظهار عظمتهما وما تركاه من تراث حضاري أثيل باعتبارهما أجداد النساطرة. ومنها أيضاً كتاب (الآشوريون في التاريخ) جمعه بالإنكليزية ايشو مالك جواردو ونقله إلى العربية سليم واكيم وطُبع في بيروت سنة ١٩٦٢.

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أنه لما دخل الإنكليز مدينة الموصل بعد استسلامها إليهم بتاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ عيَّنوا الرحالة الإنكليزي الشهير

---

(٨٩) صفاء عبد الوهاب المبارك، «انقلاب سنة ١٩٣٦»، رسالة ماجستير، كلية الآداب العراقية، ١٩٧٣، ص ٣٥. نقلاً عن مركز حفظ الوثائق، ملفة وزارة الداخلية رقم د/١١ (الأقليات وما يتعلق بها) حزيران ـ تموز ١٩٣٣، اوراق تسلسل ٢٦، ٢٩.

(٩٠) المرجع السابق نقلاً عن: A. Wilson, «Mesopotamia, 1917-1920, Clash of Loyalties,» Vol. 2, pp. 39-47.

الزعيم العسكري ليجمان حاكماً عسكرياً وسياسياً على ولاية الموصل وبقي في هذا المنصب حتى تشرين الأول ١٩١٩. فصدرت في خلال هذه الفترة جريدة باسم الموصل كانت تُعنى بنشر الأوامر والأنباء المتعلقة بإدارة البلاد، فأوعز ليجمان إلى رئيس تحريرها بأن يُعنى عناية خاصة بنشر أخبار الآثوريين وأن يُطلق على الآنسة سورما عمة المارشمعون بطريرق النساطرة لقب صاحبة السمو الأميرة الآثورية سورما، وطلب إليه أن يضيف بأنَّ صاحبة السمو موجودة الآن في لندن وقد زارت المراجع الحكومية العليا وقابلت أولي الشأن فيها، طالبة منهم تحقيق الوعود التي قطعها الإنكليز لمواطنيها في أثناء الحرب بإنشاء وطن قومي للآثوريين الكلدانيين في العراق الشمالي (الموصل وجوارها)، فاستغرب رئيس التحرير ـ وهو كلداني المذهب ـ أقوال ليجمان ونفى وجود قوم باسم الآثوريين، ووجود أميرة عليهم، وأخذ يشرح له حقيقة هؤلاء الأكراد المتنصرين بالمذهب النسطوري، وأنهم ليسوا من الآثورية الكلدانية في شيء ولكنهم أكراد... ونصح ليجمان بوجوب عدم التطرُّق إلى هذه النغمة لأنها توجد شقاقاً بين سكان الموصل من مسلمين ومسيحيين، ومن مسيحيين فيما بينهم، لأن نصارى الموصل أنفسهم كانوا منذ القدم حتى الآن ينظرون إلى هذه الفئة من الأكراد المتنصرة بشيء من الجفاء فأبى ليجمان إلاَّ الإصرار على رأيه. هذا ما ذكره يوسف يزبك في كتابه (النفط مستعبد الشعوب)، بيروت ١٩٣٤، (ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧) ونقلاً عن كاهن عالم جليل مسيحي كاثوليكي زاره في الموصل، وأضاف قوله: (لقد لعب الاستعمار أدهى لعبة في حوادث التياريين وكاد ينجح فيها على طول الخط، وذلك أنه صوَّر تلك القبائل الكردية النسطورية للرأي العالمي بأنها (أمّة) ذات تاريخ قومي مجيد، ولم يكتف الاستعمار بنسبة هذه القبائل إلى الآشوريين والكلدانيين، أصحاب التاريخ الأبلج في الحضارة وقال للرأي العام المسيحي في الدنيا: إن هؤلاء الآثوريين هم إخوتكم في المسيح، إنهم مظلومون، مضطهدون، تذبحهم الأكثرية المسلمة تعصباً وبغضاً وانتقاماً... هذا في حين لم تكن هذه القبائل الساذجة التي جعلها الاستعمار حطباً لموقد مطامعه فهي لم تكن يوماً بوارثة الأمة الآشورية، ولا تعرف آثور وكلدية،.. وقد اعتنقت المذهب النسطوري فكانت مسيحية بقدر ما تكون قبائل البدو الرحل مسلمة). (المرجع السابق، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

وقد شجب الباحثون في نظرية رئيس أساقفة كنتربري التي تُرجع اصل النساطرة إلى الآشوريين القدماء بعد إطلاق اسم (آثوريين) عليهم. ففي ذلك يقول

الأستاذ محمود الدرة: (والحقيقة هي أننا إذا استقصينا أصلهم وتحققنا تاريخهم وعلاقته بالشعب الآشوري القديم الذي نزح من الغرب والجنوب الغربي إلى العراق نجد أن للسياسة الاستعمارية دوراً كبيراً في هذه التسمية، مستفيدة في ذلك من غموض تاريخهم واختلاف الرأي فيه)[٩١]. كما يقول المرحوم صديق الدملوجي: (والمسيحية في إمارة بهدينان هي النسطورية نسبة إلى نسطوريوس الذي قام بالدعوى فيها في أوائل القرن الخامس الميلادي ولا يصح أن يُعد هؤلاء النصارى معتنقي ديانة نسطوريوس بآشوريين إذ لا علاقة لهم بالآشورية)[٩٢].

ويلاحظ أن البريطانيين غيّروا سياستهم تجاه الآثوريين بعد أن قرروا إنهاء الانتداب على العراق وعقد معاهدة مع الحكومة العراقية يؤمنون فيها مصالحهم، وعليه أخذ رجالهم المسؤولون يقرون بحقيقة أصل الآثوريين فعدلوا عن وصفهم بأحفاد الآشوريين وأبانوا في وثائقهم السرية التي أبيح مراجعتها مؤخراً أن تسمية الآثوريين بالآشوريين تسمية مضللة وينبغي وصفهم بكونهم طائفة دينية تدين بالمذهب النسطوري مما يوجب تسميتهم بالنساطرة. ففي كتاب سري من السر فرنسيس همفريز السفير البريطاني في العراق إلى السر جون سايمون في وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٩٣٣ يقول ما نصه: «إن تسمية (آشوريين) التي أطلقت عليهم (الآثوريين) هي تسمية مضللة، لذلك يتوجب وصفهم كطائفة دينية وليس كأمة»[٩٢أ].

«The name Assyrians, which came to be applied to them later, is a misnomer. It is as a church and not as a nation, that Should be described».

وفي مذكرة سرية من (Sterdale Benett) من الدائرة الخارجية البريطانية عنوانها «ملخص تاريخي للقضية الآثورية» جاء ما نصه: «إن آثوريي العراق الذين تتجه مساعي عصبة الأمم حالياً إلى إيجاد وطن جديد لهم في مكان ما هم أقلية دينية وليس لهم صفة عرقية، لذلك فمن الأصح تسميتهم بالنساطرة»[٩٢ب].

«The Assyrians of Iraq For ahom the league of Nations at present is trying to find a new home et se whwew, are a religions rther than a racila minority. It would be more correct to refer to them as Nestorian».

---

(٩١) «القضية الكردية»، ص ٩٤.

(٩٢) «إمارة بهدنيان»، ص ١٣.

(٩٢أ) سجلات وزارة الخارجية البريطانية Fo 371-1684/E 6229, Oct. 18, 1933.

(٩٢ب) سجلات وزارة الخارجية البريطانية Fo 371-17834/E 1035, Feb. 12, 1934.

١١ ـ دراسة الدكتور غرانت في أصل النساطرة:

وقد كادت هذه المسألة (مسألة أصل النساطرة) تبقى غامضة فيسدل الزمن الستار على حقيقتها لولا ظهور أحد الباحثين قبل حوالى ١٤٠ سنة، فأخذ على عاتقه دراسة هذا الموضوع دراسة علمية عملية، وقد ساعدته الظروف التي وجد فيها، وهي أنه قضى عدة سنوات في منطقة النساطرة فتجول بينهم في مواطنهم في جبال تركيا وإيران والعراق، وبعد استقصائه للحقائق واستدلاله بالبراهين القوية الحجة توصَّل إلى أن النساطرة في منطقة الجبال هم أحفاد اليهود الذين سباهم الآشوريون بعد قضائهم على مملكة إسرائيل إلى المناطق الجبلية الكردية الموزعة بين تركيا وإيران والعراق الحالية وهؤلاء هم الأسباط العشرة الذين اعتبروا بحكم المفقودين لاختفاء أخبارهم نهائياً بعد أن تنصروا إثر ظهور النصرانية، ثم تبنوا المذهب النسطوري الذي حافظوا على تعاليمه وطقوسه ولغة كتبه الأصلية في مواطنهم الجبلية المنعزلة أكثر من ألفي سنة. وهذا الباحث هو الدكتور غرانت، الطبيب والمبشر الأمريكي الذي كان قد حل بين النساطرة في مواطنهم على رأس بعثة تبشيرية أوفدها مجلس البعثات البروتستانتية الأمريكية سنة ١٨٣٥ م، وبحكم مهنته كطبيب استطاع أن يتوغل بين القبائل المسيحية النسطورية والقبائل الكردية في تلك المناطق الجبلية المنيعة والمحفوفة بالمخاطر، فاتخذ الدكتور غرانت أورمية مركزاً لعمله وأسَّس عشر مدارس في القرى المسيحية في مختلف أنحاء المنطقة ومدرسة واحدة للبنات داخلية في أورمية[٩٣].
وقد تعلَّم الدكتور غرانت لغة النساطرة التي يتفاهمون بها ما بينهم (اللهجة الآرامية السريانية المعروفة بالترجوم) وترجم بعض أقسام من الإنجيل ومن العهد القديم إلى هذه اللغة وجلب مطبعة لطبع الكتب بها، كما تعلم اللغة الكردية مما سهل عليه إنجاز مهمته. وقد قضى الدكتور غرانت هو وعائلته ست سنوات في

---

(٩٣) أورمية بلدة إيرانية تقع قرب الساحل الغربي للبحيرة المعروفة بنفس هذا الاسم (بحيرة أورمية). هي مسقط رأس زرادشت ومركز للمجوس عبدة النار، كما أنها مركز من أعرق مراكز النصرانية في العالم، كنيستها من أقدم الكنائس السريانية الشرقية ككل الكنائس الجبلية. غزتها الفرق المسيحية بمذاهبها المختلفة كفرق الروس الأرثوذكس والرومان والفرنسيين الكاثوليك والمعمدانيين الأمريكان والبروتستانت الإنكليز كل من هؤلاء يبذل أقصى الجهود لجر أتباع هذه الكنيسة إلى مذهبه، سكانها حسب إحصاء سنة ١٩٥٦ (٦٧١٥٨٠) نسمة أكثرهم من الأتراك وفيها أقليات من الأرمن والنساطرة.

المنطقة الموزعة بين تركيا وإيران والعراق، وبعد دراسة عميقة لعادات هؤلاء النساطرة وتقاليدهم وطقوسهم الدينية واتصالاته بالشخصيات الدينية والقبائلية من النساطرة واليهود بخاصة اتصاله ببطريرق النساطرة الأكبر (المارشمعون) الذي كان مقره في «قوجانس» التابعة لقضاء (جولامرك) التركي، توصل إلى أن النساطرة القاطنين في كردستان هم من أحفاد الأسباط العشرة الذين سباهم الآشوريون وأبعدوهم إلى مناطق آشور النائية، وهي المناطق التي ورد ذكرها في التوراة، أي «حلح» و(خابور نهر جوزان) و(هارا) ومدن مادي. وهؤلاء هم الاسباط العشرة الذين اعتبروا مفقودين لانقطاع الاتصال بهم وطمس أخبارهم بعد تشتيتهم في مناطق كردستان الجبلية النائية فأُطلقت عليهم تسمية «الأسباط المفقودة» (The Lost Tribes) وقد كان هؤلاء على رأي الدكتور غرانت يهوداً عندما نفاهم الآشوريون إلى هذه المناطق الجبلية البعيدة(٩٤)، ثم لمَّا ظهر المسيح بعد أكثر من سبعة قرون إتخذ أكثرهم بل كلهم تقريباً تعاليمه ديناً لهم وذلك نتيجة إرسال البعثات المسيحية التبشيرية التي أوفدها الحواريون أتباع المسيح إلى هذه المناطق للتبشير بتعاليم الدين المسيحي الجديد بينهم مما يدل على أن الحواريين كانوا على علم بوجود الأسباط العشرة في تلك المناطق وكانوا على اتصال مسبق بهم. وقد حافظ هؤلاء اليهود المتنصرين على تقاليدهم وعاداتهم القديمة التي هي نفس تقاليد وعادات ولغة اليهود القاطنين إلى جانبهم في تلك المناطق، وهم قلة بينهم بقوا على يهوديتهم، حتى أنه كان من الصعب التمييز بين النساطرة وبين اليهود القاطنين في المنطقة نفسها حيث كان كلاهما يتكلمان بلغة واحدة ويلبسان لباساً واحداً. وقد أورد الدكتور غرانت أدلة كثيرة بصورة مفصلة لدعم ما توصل إليه بخصوص أصل النساطرة في كتاب نشره بالإنكليزية تحت عنوان «النساطرة أو الأسباط المفقودة»، وطُبع هذا الكتاب في لندن سنة ١٨٤١ م، ثمَّ تُرجم إلى الفرنسية وطُبعت الترجمة بباريس سنة ١٨٤٣ م.

أمَّا الأدلة التي يستند إليها الدكتور غرانت والتي أدت به إلى التوصل إلى النتائج المذكورة فيما مرَّ فقد أوردها بشكل مفصل في كتابه ندون فيما يلي خلاصتها:

أولاً ـ إن اللهجة التي يتخاطب بها النسطوريون ما بينهم هي اللهجة نفسها

---

(٩٤) انظر ما تقدم حول سبي اليهود إلى المناطق الجبلية من كردستان.

التي يتكلم بها اليهود القاطنون إلى جانبهم مما يدل على أن كليهما يرجعان إلى أصل واحد وقد جاؤوا إلى منطقة آشور من بلد غريب يتكلم أهله بهذه اللهجة «لغة الترجوم» وهو فلسطين. ويؤكِّد الدكتور غرانت أن النسطوريين المسيحيين في أورمية يتفاهمون مع اليهود القاطنين في العمادية بلهجة واحدة بحيث يتعذر التمييز بينهما ـ كما يؤكِّد أنه كان يتكلم مع يهود أورمية بلهجتهم السريانية العامية بنفس السهولة التي يتكلم بها مع النساطرة المسيحيين، ويستشهد الدكتور غرانت بأشخاص ذكر أسماءهم يقول أن هؤلاء درسوا اللغة السريانية العامية عند النساطرة وعند اليهود في منطقة كردستان وهم يؤيِّدون ما ذهب إليه من أن الفريقين يتكلمان بلهجة واحدة. وينتهي الدكتور غرانت إلى أن هذه حجة قوية لا تقبل الجدال بأنَّ كلا الفريقين ينتميان إلى أصل واحد، أي إلى بلد غريب جاءا منه إلى منطقة آشور، وهذا البلد الغريب هو فلسطين التي كان يهود إسرائيل يتكلمون بهذه اللهجة قبل سبيهم إلى آشور. وهذه هي اللهجة نفسها التي كان يتكلم بها المسيح وهي غير لهجة الكتب المقدّسة وهي اللغة السريانية الكلاسيكية. ويُشير الدكتور غرانت إلى نقطة هي مهمة في نظره، وهي أن النساطرة واليهود في جبال كردستان هم الجماعة التي بقيت تتكلم بهذه اللهجة (الآرامية) السامية القديمة ومعهم بعض أهالي القرى المسيحية في سورية الذين لا يزالون يتكلمون هذه اللهجة ولعلهم يرجعون إلى نفس المنطقة التي جاء منها اليهود أي فلسطين(٩٥).

ثانياً ـ إن يهود كردستان لا يختلطون مع النساطرة ونادراً ما يتزاورون ما بينهم، واليهودي لا يأكل من النسطوري، وهذا دليل آخر على أن النسطوريين المسيحيين واليهود في كردستان يرجعون إلى أصل واحد. فإذا رجعنا إلى التاريخ نجد أن هذه هي نفس العداوة التقليدية بين اليهودية والمسيحية ورثها اليهود والمسيحيون عن أجدادهم على الرغم من رابطة اللغة التي تربط بينهما. ولا يزال اليهود حتى هذا اليوم لا يحجمون عن تعبيرهم عن هذه العداوة كلما يُبحث موضوع المسيحية وصلتها باليهودية(٩٦)، وصلة النساطرة واليهود في كردستان هي أشبه بصلة اليهود بالسامريين في فلسطين(٩٧).

---

(٩٥) A. Grant, «op. cit.,» pp. 153-163.

(٩٦) A. Grant, op. cit., pp. 199-202, 127.

(٩٧) السامريون فئة قليلة من اليهود لا تعترف من التوراة بغير الأسفار الخمسة المنسوبة إلى النبي موسى، وتُعرف هذه الفئة بالسامريين نسبة إلى السامرة وهم يسكنون في نابلس =

ثالثاً - إن الشعب النسطوري غريب في علاقته مع القاطنين بجواره، فهو منعزل تماماً لا يختلط مع أي عنصر غير عنصره.

وهذه هي الخصلة نفسها التي يتميز بها اليهود مما يدل على أن النساطرة ورثوها عن أجدادهم اليهود - مع العلم أن النساطرة لا يختلطون حتى مع إخوانهم في الدين أي الأرمن ولا يتزاوجون معهم. ومن أبرز ما ورثوه عن الأجداد اليهود أنهم لا يزالون يعيشون على شكل قبائل منفصلة بأسمائها الخاصة كما كانت عليه الأسباط اليهود في فلسطين(٩٨).

رابعاً - إن جميع أسماء بطارقة النساطرة تقريباً وأكثر أسماء النساطرة هي أسماء يهودية وردت في التوراة، كذلك أسماء النساء النسطوريات، وهذا ما يدل على صلتهم بالأجداد اليهود(٩٩).

خامساً - إن هناك شبهاً وثيقاً بين تركيب جسم النسطوري المسيحي وبين التركيب الجسمي لليهود القاطنين في نفس المنطقة التي يسكنها النساطرة المسيحيون، بحيث لا يستطيع حتى أهل المنطقة أن يميِّزوا بين النسطوري والمسيحي واليهودي القاطن بالمنطقة نفسها، ويؤكِّد الدكتور غرانت بأنَّه هو نفسه لم يستطع أن يميِّز بين النسطوري المسيحي واليهودي في كردستان التي عاش فيها عدة سنوات، ويستشهد بأشخاص ذكرهم بأسمائهم من الإرساليات التبشيرية يؤيِّدون ذلك(١٠٠).

سادساً - يذكر الدكتور غرانت أن المرجع الأساس الذي يمكن الاستدلال به على أصل النساطرة هم اليهود القاطنون في نفس المنطقة التي يسكنها النسطوريون، لذلك فقد اتصل بالعديد منهم وخاصة العارفين منهم، فأيَّدوا له أنهم هم والنسطوريون من أصل واحد جاء بهم الآشوريون من فلسطين إلى جبال

(شكيم القديمة) وتوجد لديهم نسخة قديمة من الأسفار الخمسة على رق يدَّعون بأنَّها تُرجع إلى ما قبل عهد المسيح، وهم يرفضون كل ما عداها وما يزالون يتمسَّكون بها حتى اليوم. وقد استقلت هذه الفئة بكيانها الديني، وعمل اليهود على إخراجها من الحظيرة اليهودية، وقد بنت لها هيكلاً خاصاً بها على جبل «جرزيم» عند نابلس واعتبرته بمثابة «جبل الطور». وقد قام بينها وبين اليهود عداء استمر حتى هذا اليوم.

(٩٨) A. Grant, op. cit., pp. 202-206, 194-197.

(٩٩) Ibid., pp. 193-194.

(١٠٠) Ibid., pp. 192-193.

آشور، ثم ارتد القسم الأكبر منهم عن اليهودية وصبؤوا إلى النصرانية بعد وفاة المسيح مباشرة على يد الحواريين. وقد سجل الدكتور غرانت حديثاً بتاريخ ٦ مارت ١٨٤٠ م مع اثنين من العارفين اليهود وهما حزقيال ودانيال من أورمية فأكَّدا له بحضور الأسقفين النسطوريين مار يوسف ومار اليا وبحضور نساطرة آخرين أن زمن تحوّل إخوانهم اليهود إلى المسيحية مدوّن لدى الأحبار اليهود في وثائق مخطوطة قديمة فُقدت بتقلب الأحوال ولا يمكن إبرازها، ثم يضيف الدكتور غرانت أن يهوداً آخرين من أورمية أيَّدوا له أقوال حزقيا ودانيال كما أيَّد له ذلك أيضاً الحاخام الأكبر الذي قابله في الكنيس بحضور مساعديه مؤكِّداً أن النساطرة هم من إخوانهم المرتدين عن اليهودية وقد أخذوا بالمسيحية في زمن المسيح أو في زمن حواريه بعد وفاة المسيح مباشرة(١٠١).

سابعاً ـ يؤكِّد الدكتور غرانت أن الاعتراف بتحول اليهود المسبيين إلى المسيحية لم يقتصر على اليهود القاطنين إلى جانب النساطرة بل شمل أيضاً النساطرة أنفسهم، فالنساطرة العارفون وحتى عامة النساطرة يعترفون بأنهم من سلالة بني إسرائيل حتى أصبحت تسمية النساطرة وبني إسرائيل تسمية مشتركة لشعب واحد. ويضيف الدكتور غرانت إلى ذلك قوله بأنَّ بعض النساطرة يسمُّون أنفسهم بأهل الناصرة وهذه التسمية تعني عندهم اليهود المرتدين عن اليهودية والمتحولين إلى المسيحية وهي لا تستعمل للدلالة على غير النساطرة بين أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى. ويقول الدكتور غرانت أنه شاهد بعض الرسائل للنساطرة موجهة إلى البطريرك المار شمعون يلقبونه فيها ببطريرك جميع أهل الناصرة(١٠٢). ويذكر الدكتور غرانت أيضاً أن بطريرك النساطرة أكَّد له أن العائلة التي ينتمي إليها تنحدر من سلالة نفتالي أحد الأسباط العشرة التي نقلها الآشوريون إلى جبال كردستان، وقد ورد ذكر هذا السبط بالذات في كتابات تجلات بلاشر الثالث (٧٤٦ ـ ٧٢٧ ق.م.) حيث قال إنه استولى على نفتالي وضمها إلى آشور، ومما ذكره البطريرك إلى الدكتور غرانت أيضاً أن هناك وثائق مخطوطة قديمة تثبت ذلك غير أنها غرقت قبل ستين سنة في نهر الزاب مع مخطوطات أخرى قديمة عندما كان يُراد نقلها عبر النهر في فيضانه العالي(١٠٣).

(١٠١) Ibid., pp. 126, 240.

(١٠٢) Ibid., pp. 164-170, 195-197.

(١٠٣) Grant, op. cit., pp. 195-196.

ثامناً - يقول الدكتور غرانت إن من الثابت أن المسبيين اليهود إلى آشور قد تحوّلوا إلى النصرانية بعد ظهور المسيح على يد الحواريين مباشرة بعد وفاة المسيح، حيث اتجه الحواريون إلى منطقة آشور وقد كانوا يعلمون بوجودهم هناك فأخذوا يبشرون بين إخوانهم في آشور دون غيرهم، لأنَّ الحواريين أنفسهم كانوا مختتنين وكان اتصالهم بغير المختتنين (أهل الغرلة) يُعد عندهم خطيئة آنذاك[١٠٤]. هذا مع العلم أن المعمودية حلّت محل الختان فيما بعد وصارت تجري عند النساطرة في اليوم الثامن من عمر الطفل كما كانت العادة عند الأسباط العشرة كانوا يختنون الأطفال الذكور في اليوم الثامن من العمر أيضاً[١٠٥].

تاسعاً - كان مركز البطريرك عند النساطرة مركز الربيين أنفسهم الذي كان سائداً بين الأسباط العشرة، فكان البطريرك يرأس المجامع الدينية ويفرض القصاص وسلطته ممتدة من الإله[١٠٦].

عاشراً - إن العادات الاجتماعية والحياة اليومية عند النساطرة من حيث الحرفة والطقوس واللباس والزينة والزواج والضيافة والثأر بين القبائل وما إلى ذلك من الاحتكاكات اليومية في المجتمع النسطوري هي نفسها كان يمارسها الأسباط العشرة في فلسطين[١٠٧].

وقد زار الأب ساوثكيت منطقة كردستان واطلع على أعمال المبشرين الأمريكان بين النساطرة فوصف مدارسهم وقال أن الدكتور غرانت اكتسب شهرة واسعة بين الأكراد والنساطرة كطبيب ناجح وكانوا يسمونه «حكيم صاحب».

حادي عشر - إن الكتاب المقدّس يشير إلى أن التبشير بالمسيحية بين الأسباط العشرة قد تمَّ في عصر الحواريين وما بعده إذ جعلت أولى مهمات

(١٠٤) كان أهل الختان من اليهود يعتبرون الاتصال بأهل الغرلة خطيئة بدليل النص التالي الوارد في الكتاب المقدّس: «فلما صعد بطرس إلى أورشليم خاصمه الذين من أهل الختان قائلين إنك دخلت عند رجال قلف وأكلت معهم» (أعمال الرسل ١١ : ٢ - ٣). Ibid., p. 224.

(١٠٥) Grant, op. cit., p. 191.

(١٠٦) Ibid, p. 197.

(١٠٧) H. Southgate, «Narrative of a Tour Through Armenia, Kurdistan, Persia and Mesopotamia, London, 1840, Vol. I, pp. 301-311.

الحواريين التبشير بين الأسباط العشرة فقط (انظر أعمال الرسل ١٠: ٣٦، ٢٦: ٦ ـ ٧)[١٠٨].

ثاني عشر ـ إن هناك اثباتات قاطعة أن الأسباط العشرة كانوا موجودين في حدياب (آشور) في القرن الأول للميلاد، ففي خطاب هيرودس غريبا ملك فلسطين في عهد الأمبراطور كاليجولا والأمبراطور كلوديوس (٣٧ ـ ٥٤ م) الموجَّه إلى يهود فلسطين ما يؤيِّد ذلك حيث كان في جملة ما قاله في خطابه: «إن إخوانكم في حدياب لا يستطيعون أن يمدوكم بأية مساعدة لأن الفرثيين لا يسمحون لهم بذلك». كما أن يوسفوس الذي عاش في القرن الأول للميلاد يؤكِّد بكل وضوح أن الأسباط العشرة كانوا إلى ذاك اليوم في البلد الذي نقلوا إليه أسرى فيما وراء الفرات. كما جاء في التوراة التي كتبت في وقت متأخر ما يؤيِّد ذلك أيضاً «فسبي إسرائيل من أرضه إلى هذا اليوم». (٢ مل ١٧: ٢٣)[١٠٩].

ويرى العلامة الدكتور نيوزنر صاحب كتاب «تاريخ اليهود في بابل، إن الدلائل التي أوردها الدكتور غرانت في دعم الرأي القائل بأن النساطرة هم في الأصل من اليهود الذين نفاهم الآشوريون إلى منطقة كردستان ثم صبؤوا إلى النصرانية بعد ظهور المسيح تقيم حجة قوية لتقبل هذه النظرية، ويؤكِّد أن أتباع كنيسة الشرق كان معظمهم من اليهود المتنصرين الذين انضموا إلى النسطورية[١١٠] ويضيف نيوزنر إلى ذلك قوله «إن أول المتنصرين في الشرق كانوا من بين اليهود»[١١١]. ويؤكِّد ذلك الأب أدي شير فيقول في كتابه «كلدو وآثور» (ج٢ ص ٨) «إن أول جماعات نصرانية قامت في بلادنا تألَّفت من اليهود».

ويؤكِّد القس بطرس نصري الكلداني في مقاله عن أصل النساطرة المنشور في المشرق م١٦ (١٩١٣) (٥٠٠) كون أصل قبائل جيلو الآثورية من اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى بلاد آشور بقوله: «وفي جنوب غربي كوار توجد جبال شامخة وأودية وعرة وعميقة تسمَّى داسان العليا وهناك يسكن أهل جيلو ويبلغ عددهم أكثر من ١٥٠٠ بيت ولهم أسقف يسمَّى مار سركيس وأكبر قرية في جيلو هي زيريني ويجلس فيها رئيس جيلو المدعو بملك. وروى بعضهم أن سكان

---

(١٠٨) Grant, op. cit., p. 224

(١٠٩) Ibid, pp. 222 .

(١١٠) J. Neusner, op. cit, Vol. III, pp. 15-16 .

(١١١) Ibid, Vol. I, p. 183 .

جيلو هم من جنس اليهود وفي سحنتهم ولونهم شبه بلون اليهود ومعنى اسمهم الجالية ولا يبعد أن يكون أصلهم من اليهود الذين كانوا قد سبوا إلى نينوى في سالف الأزمنة. وهؤلاء يقضون حياتهم غالباً في المهاجرة وقليلون هم الذين يشتغلون في بلدهم ـ إذ ليس لهم مكان يتمكنون فيه من الزراعة وتربية الغنم والمواشي، وقسم كبير من سكان جيلو مع ملكهم هم كاثوليك.

وأهم من كل ذلك أن هرمز رسام وهو آثوري تجنَّس بالجنسية البريطانية وكان يمثل الآثوريين في الأوساط السياسية الدولية يعترف بكل صراحة أن الآثوريين جاؤوا في الأصل مع اليهود من أور الكلدان(١١٢).

١٢ ـ زمن وجود النساطرة في مناطقهم الجبلية

لقد اختلف الباحثون في تحديد زمن وجود النساطرة في المناطق الكردية الجبلية النائية، فقال بعضهم إن وجودهم في هذه المناطق يرجع إلى زمن الغزو المغولي لبلاد الشرق (في غربي آسيا)، فيقول ماتييف ومار يوحنا في كتابهما «تاريخ الآثوريين» (ص ١٦) ما نصه: «والمغول قوم يدينون بالعقيدة السامانية ولكنهم مع ذلك طلبوا من الباباوات والملوك في أوروبا المسيحية مساعدتهم في القضاء على الدول الإسلامية كما رجوا قبول انضمامهم تحت لواء المسيحية، فقد أرسل أرجون خليفة هولاكو بعثة إلى أوروبا برئاسة (أويغور بارصوما) المغولي الذي اعتنق النسطورية، وعند فشل هذه المحادثات قرَّر المغول اعتناق الإسلام ـ العقيدة الدينية للشعوب التي احتلوا أراضيها ـ ومنذ ذلك الوقت أخذوا يطاردون معتنقي الديانات الأخرى ويضطهدونهم. وقد انصب غضب المغول بالدرجة الأولى على الآثوريين (النساطرة) الذين كانوا يكوِّنون فئة أصحاب الحرف نصف الأغنياء. وقد أتم تيمور العمل الذي بدأ فيه أجداده وأخذ يطارد الآثوريين (النساطرة) من أقصى الصين حتى البحر الأبيض المتوسط. وقد استطاعت ثلاثة مجاميع آثورية الهرب من بطش المغول: توجهت الأولى إلى الهند (سواحل مالابار)، وتوجهت الثانية إلى قبرص، أما المجموعة الثالثة وهي أكبر المجاميع فقد هربت مع البطريرك الآثوري إلى جبال كردستان.

وهذا ليس بدليل على أن النساطرة وجدوا في المناطق الجبلية من كردستان لأول مرة على إثر الغزو المغولي، بل هو دليل على أن النساطرة كانوا موجودين

---

(١١٢) (سجلات وزارة الخارجية البريطانية) Fo 371/ 16889/ 1538/ 7/ 93,23/ 3/ 33.

في هذه المناطق قبل ذلك وقد لجأ إليهم النساطرة من مختلف الأنحاء هرباً من المغول. والدليل على أن النساطرة كانوا موجودين في هذه المناطق الجبلية منذ زمن قديم مشكّلين مركزاً حصيناً للكنيسة النسطورية إن بطريرك النساطرة المار شمعون اختار هذه المنطقة ذاتها ليتخذها مركزاً رئيساً للكنيسة النسطورية عندما شعر بخطر زوالها عندما اشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية لحثهم على اعتناق مذهبها.

أما إذا اخذنا بنظرية غرانت القائلة بأنَّ أصل المسيحيين النساطرة من اليهود الذين نقلهم الآشوريون من فلسطين إلى المناطق الجبلية من آشور ثم بعد وفاة المسيح صبؤوا إلى النصرانية بطريق التبشير ثم أخذوا بالمذهب النسطوري بعد ظهور هذا المذهب ـ فيكون النساطرة قد وجدوا في هذه المناطق الجبلية منذ زمن الآشوريين، أي قبل ٢٨٠٠ سنة وظلّوا في هذه المناطق محافظين على لغتهم السريانية القديمة وطقوسهم الدينية وتقاليدهم الأصلية. وأوضح دليل على وجودهم في هذه المناطق منذ زمن قديم جداً أن كنائسهم تعتبر أقدم الكنائس المسيحية في الشرق فالكنيسة النسطورية في أورمية تعتبر أقدم الكنائس المسيحية، إذ شُيِّدت في القرن الأول للميلاد(١١٣). هذا ما يدل على أن المسيحية انتشرت في هذه المنطقة منذ القرن الأول للميلاد أي بعد وفاة السيد المسيح ثم كانت من أقدم الكنائس المسيحية التي أخذت بالمذهب النسطوري إن لم تكن أقدمها.

يتضح مما تقدم أن هناك موضوعاً رئيسياً يتصل اتصالاً مباشراً ببحث تاريخ يهود العراق القديم وذلك من حيث وجودهم لأول مرة في العراق عندما جيء بهم أسرى إلى شمال العراق قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة ومن حيث تحولهم إلى المسيحية ألا وهو تاريخ نشوء المسيحية ودور المذهب النسطوري فيه. لذلك نسوق إلى القارئ في الفصل الثاني من هذا البحث عرضاً موجزاً لتاريخ النصرانية وتطورها لتوضيح دور النسطورية فيه.

---

(١١٣) ماتفييف ومار يوحنا، «تاريخ الآثوريين»، ص ٣١.

الفصل الثاني

المسيحيَّة

ودور النسطورية فيها

«لا تظنُّوا أنّي جئت لأنقض الشريعة والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأتمِّم»

دعوتهم إلى النسطورية في الصين ومنغوليا ومنشوريا وكورية وتايوان وسيبريا والهند وسيلان ودول آسيا الوسطى[٢٣] فحملت ثقافتهم هذه طابعاً عالمياً وأثّرت إلى حد كبير على الفكر العربي في الدولة الإسلامية وبالنتيجة على الفكر الأوروبي عن طريق العرب[٢٤] ففي القرن الحادي عشر استطاعوا أن يكسبوا إلى دينهم إحدى القبائل المنغولية التي يبلغ عدد أفرادها مائتي الف نسمة، وبعد ذلك ترجموا الى المنغولية كتابي العهد الجديد والعهد العتيق كما حققوا نجاحاً كبيراً في الصين[٢٥].

وقد ساهم النساطرة في البحوث العلمية التي كان يقوم بها العلماء في بيت الحكمة الذي شيَّده الخليفة المأمون في القرن التاسع للميلاد، كما ساهموا في ترجمة المخطوطات الإغريقية والسريانية القديمة للفلاسفة والرياضيين والأطباء والفلكيين والكتّاب إلى اللغة العربية، وكان الخلفاء يرسلون النساطرة والإيرانيين إلى الخارج لجمع المخطوطات ودراسة اللغات الأجنبية ثم عانت النسطورية والمسيحية بوجه عام الكثير من الاضطهاد والمطاردة في كل مكان في عهد المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر فتوجه بعضهم إلى الهند (سواحل مالابار) وتوجّه البعض الآخر إلى قبرص في حين أن أكبر المجاميع هربت مع البطريرك النسطوري إلى جبال كردستان حيث كان يقيم إخوانهم النساطرة منذ القديم. ومنذ ذلك الوقت أخذت النسطورية تتقلص تدريجياً بعد غزو المبشرين الكاثوليك إلى ديارهم ودعوتهم إلى نبذ النسطورية والتحول إلى الكاثوليكية، فاستطاع هؤلاء المبشرين أن يُخضعوا النساطرة لسيطرتهم في كل البلاد ما عدا النساطرة الذين اعتصموا في جبال كردستان مع بطريركهم وأصبح الصابئون إلى الكثلكة يُعرفون بالنساطرة الكلدان ولقب بطريركهم بلقب بطريرك بابل[٢٦].

٩ ـ اللغة السريانية لغة الكنيسة النسطورية:

تنتمي لغة النساطرة المعاصرة إلى أُسرة اللغة الآرامية (التي تدخل ضمن

---

(٢٣) J.W. Etheridge, «The Syrian Churches», p. 81.

(٢٤) Luke «Mosul and its Minorities», p. 7.

(٢٥) «تاريخ الآثوريين»، مرجع سابق، ص ١٥.

(٢٦) انظر: اوليري، «مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب»، ترجمة دكتور تمام حسان، القاهرة ١٩٥٧، ص ٦٩ ـ ١٠٧.

المسيحية ودور النسطورية فيها

١ ـ المسيحية بين الديانات السماوية.
٢ ـ النصرانية في أول أطوارها.
٣ ـ المسيحية على عهد الأباطرة الرومان.
٤ ـ عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م.
٥ ـ التوحيد والثالوث في الديانة المسيحية.
أ ـ التوحيد عقيدة شرقية عربية الأصل.
ب ـ التوحيد والتعدد في الديانة المسيحية.
٦ ـ الكنائس الأربع الرئيسية قبل الانقسام.
٧ ـ أول انقسام في المسيحية ـ ظهور النسطورية.
٨ ـ انتشار النسطورية في الشرق.
٩ ـ اللغة السريانية لغة الكنيسة النسطورية.
١٠ ـ بطريركية النساطرة ـ المار شمعونية.
١١ ـ عقد مجمع خلكيدونية لسنة ٤٥١ م.
١٢ ـ ظهور اليعقوبية وانتشارها في الشرق.
١٣ ـ الانقسامات في الكنيسة المسيحية.
١٤ ـ انقسامات داخلية في الكنيستين النسطورية واليعقوبية.
١٥ ـ الكنيسة المسيحية الشرقية تؤمِّن الحفاظ على ثلاث لغات قديمة.
١٦ ـ التبشير بين النساطرة.
١٧ ـ الروس والنساطرة.
١٨ ـ البعثات الإنكليزية والنساطرة.
١٩ ـ البعثات الأمريكية والنساطرة.
٢٠ ـ النساطرة بعد دخول البعثات الأجنبية إلى مناطقهم.
٢١ ـ الصراع بين البعثات الأجنبية.
٢٢ ـ الصراع السياسي بين الدول.
٢٣ ـ النسطورية تصمد في معقلها في جبال كردستان.

١ ـ المسيحية بين الديانات السماوية:

إنَّ التحول من عقيدة دينية الى أخرى بين الأقوام في التاريخ القديم وبخاصة بعد ظهور الديانات السماوية الثلاث ـ اليهودية والمسيحية والاسلام ـ قد لعب دوراً مهماً في مجرى العلاقات السياسية الدولية في تلك الأزمان السحيقة. فقد كانت الديانة اليهودية أولى الديانات التي انتشرت بين الأقوام الوثنية نتيجة للتبشير بينهم. وكان التبشير بوجه خاص نحو رؤساء القبائل والأمراء، فإذا اعتنق رئيس قبيلة أو أمير أو ملك هذه الديانة فرضها على رعاياه. ولما ظهرت المسيحية أخذت هذه الديانة الجديدة تزاحم اليهودية، فلم تكتف بالتبشير بين الوثنيين بل وجهت جل اهتمامها للتبشير بالدين المسيحي الجديد بين اليهود لحثهم على التحوُّل إلى المسيحية. وكان أقدم مَن اعتنق المسيحية بعد ظهور السيد المسيح جماعات من اليهود وكان في مقدمتهم، على قول بعض الباحثين، اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى كردستان والذين صاروا يُعرفون بالنساطرة لاعتناقهم المذهب النسطوري في أول انشقاق في الكنيسة المسيحية. واستمر هذا التنافس والتزاحم بين اليهودية والمسيحية في تبشير كل منهما بعقيدة الآخر في وسط اضطهاد الوثنيين للطرفين حتى انتصرت المسيحية على اليهودية باعتناق الأمبراطور الروماني قسطنطين الأول في أوائل القرن الرابع الميلادي المسيحية فانتشرت المسيحية في أنحاء الدولة البيزنطية بعد أن جعلها ديانتها الرسمية. وفي انتشار اليهودية في اليمن على أثر اعتناق ملكها تبان أسعد أبو كرب في القرن الخامس للميلاد خير مثال لهذا التنافس بين الديانتين اليهودية والمسيحية فأجبر هذا الملك المسيحيين على اعتناق اليهودية ـ وعندما انقلبت الآية وانتصرت المسيحية طُبِّق نفس الدور على اليهود فأُجبروا على اعتناق المسيحية. وفي اعتناق ملك الخزر اليهودية وانتشارها في بلاد الخزر واعتناق أمير حدياب اليهودية من الأمثلة الأخرى في هذا المجال، وبظهور الإسلام أخذت الوثنية تلفظ أنفاسها الأخيرة في أكثر بلاد الشرق وقد دخل في الإسلام اليهود والمسيحيون على حد سواء بخاصة العرب منهم لما انطوى عليه هذا الدين الجديد من التسامح والمساواة، فقد اعتنق أكثر يهود ونصارى الجزيرة العربية وهم من أصل عربي الإسلام بعد أن نزحوا عن جزيرة العرب إثر إجلائهم منها في عهد الخليفة عمر (رض). ومن القبائل الكردية المسيحية التي اعتنقت الإسلام البروارية في منطقة العمادية وأكثر سكان منطقة بارزان بعد أن دخلتها الأسرة البارزانية.

ولما كان للنصرانية في أول أطوارها صلة مباشرة بموضوع يهود كردستان من السبي الآشوري وتحولهم إلى النصرانية ثم اعتناقهم المذهب النسطوري فلا بدَّ من عرض نبذة عن النصرانية في أول أطوارها ثم نبذة عن الانقسامات في الكنيسة المسيحية ألتي أدَّت إلى ظهور النسطورية ودورها في تأريخ المسيحية.

٢ ـ النصرانية في أول أطوارها:

نشأت النصرانية في الشرق على عهد المسيح على أُسس الديانة اليهودية وامتداداً لها، وقد قال يسوع: «لا تظنوا أنِّي جئت لأنقض الشريعة والأنبياء ما جئت لأنقض بل لأُتمِّم»[١].

وتتفق التواريخ المسيحية والكتب الطقسية القديمة على أن مار أدي ومار ماري واحي من تلاميذ السيد المسيح تلمذوا المشرق فقصدوا «بلاد الرها والموصل وبابل والشمال والجنوب وبوادي المغرب». وقضى مار ماري ثلاثاً وثلاثين سنة يطوف بين بلدان المشرق ثم أقام في المداين حيث أسَّس كرسي الفطركية فيها فثبَّته «وأمر أن لا يكون فطرك المشرق إلاَّ بها خاصة إلى آخر الزمان». ولما وافته المنية دُفن بدور قنِّي في سرجاد عن يمين المذبح بالبيعة الكبرى وقام المار ماري «بتلماذ جميع نواحي أرض بابل والعراقين والأهواز واليمن والجزائر وبلاد العرب سكان الخيم ونجران وجزائر بحر اليمن وبحر الهند» وكان ذلك في زمن افرهط ملك بابل إفراهاط الخامس (٢ ق.م. ـ ٥ ب.م.) ونيرون قيصر ملك الروم (٥٤ ـ ٦٨ م)[٢].

ومن تقاليد الكنيسة الكلدانية الشرقية أن مار آدي ومار ماري من تلاميذ السيد المسيح السبعين بشّرا في هذه الأصقاع من الشرق فذكر أحد المؤرِّخين العرب نقلاً عن العباديين نصارى الحيرة ما يؤيِّد هذا التقليد قائلاً[٣]: «والعباد تذكر أن أول البطاركة السريانيين الذين نزلوا كرسي المشرق على قديم الأيام بعد صعود المسيح إلى السماء بنحو ثلاثين سنة بعث توما أحد الاثني عشر آدي السليح من السبعين وهو نصَّر أهل المدائن ودير قنِّي وكسكر وغيرها من السواد وبنى بيعتين إحداهما بالمدائن دار مملكة فارس يومئذ وجعلها كرسياً لمَن يأتي

(١) متى ٥: ١٧.
(٢) انظر الفقرة ٩ من الفصل الأول.
(٣) المسعودي «التنبيه والإشراف» ص ١٤٤.

بعده من البطاركة ورسم أن لا تتم البطركة لمَن نصب لها إلاَّ في هذه البيعة وأخرى بدير قنّي وقبره بها».

وقد ورد في تاريخ يوسيبوس ما يُشير إلى أن أحد ملوك الرها المدعو أبجر الخامس (٤ ق.م. ـ ٥٠ ب.م.) لما سمع عن شهرة المسيح كتب إليه طالباً منه أن يأتي إلى الرها ليشفيه من مرض اعتراه، ومما قاله في رسالته له: لقد بلغني أن اليهود يضايقونك ويضمرون لك الشر فبلدي بلد صغير ولكنه بلد جميل وسني يسعنا كلينا، فأجابه المسيح مباركاً إياه ووعده أنه بعد قيامته يرسل إليه أحد تلامذته. والتقليد الشائع أن مار آدي أحد التلامذة السبعين أتى بعد وفاة المسيح إلى الرها وشفاه من مرضه وعمّده. وبذلك كان أبجر هذا أول المتنصرين من ملوك الرها[٤].

٣ ـ المسيحية على عهد الأباطرة الرومان:

وقد شقت المسيحية طريقها فنمت في الشرق بوجه خاص على عهد الرومان على الرغم من معاناة المسيحيين الأوائل شتى أنواع الاضطهاد من الوثنيين ووشاية اليهود بهم حتى تبنَّى الملك قسطنطين الأول (٣١٢ ـ ٣٣٧ م) الكنيسة المسيحية فاعتنق هو نفسه الديانة المسيحية وأصدر سنة ٣١٣ مرسوماً يقضي بمنح المسيحيين حرية العبادة على دينهم في جميع أقطار الأمبراطورية الرومانية. ثم اتخذ سنة ٣٣٠ م بيزنطية عاصمة رسمية للأمبراطورية الرومانية وغيَّر اسمها وسمَّاها القسطنطينية على اسمه[٥]. ولا شك أن قسطنطين تأثَّر بتوجيهات أمه الملكة هيلانة وهي مسيحية ابنة قسيس سرياني من الرها، وقد جادت هيلانة على الأماكن المسيحية المقدسة بأموال جزيلة، فبنت كنيسة القيامة في أورشليم وكنيستين فوق مغارتي بيت لحم وجبل الزيتون كما بنت كنائس في الرها وطنها وحلب وغيرها من البلدان وبذلت مالاً كثيراً على أهل البؤس.

وعلى أثر ذلك تشكلت الكنيسة المسيحية في الشرق تحت رعاية وسلطة الأمبراطور. وبعد تقسيم الأمبراطورية الرومانية إلى غربية ومركزها روما، وإلى شرقية ومركزها القسطنطينية سنة ٣٦٤ م قويت كفة الكنيسة المسيحية في القسم

---

(٤) «كلدو وآثور»، ج١ ص ١٧١؛ ج٢ ص ٢.

(٥) يقول المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف» (ص ١٤٤) إن قسطنطين دان بالنصرانية بعد مضي عشرين سنة على اعتلائه العرش أي سنة ٣٣٢ م.

الشرقي من الأمبراطورية الرومانية، فصار الأمبراطور هو الذي يرشح بطريرك القسطنطينية، الذي يأتي في المقام الأول بين البطاركة يليه في المرتبة بطريرك الإسكندرية الذي يُعتبر الرئيس لكنيسة أفريقيا، ثم يأتي في الدرجة الثالثة بطريرك أنطاكية. وكانت لغة الطقوس الكنيسية اللاتينية في الغرب واليونانية في الشرق، ثم تغلّبت السريانية في الكنيسة الشرقية. وقد اتخذت الكنيسة الشرقية في الهلال الخصيب من مدينة الرها (اورفة الحالية)(٦) مركزاً دينياً لها.

٤ ـ عقد مجمع نيقية(٧) سنة ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١:

وهكذا صار الأمبراطور في القسطنطينية يرعى الشؤون الكنيسية، فأوجد قسطنطين لأول مرة بإشارة أمه هيلانة فكرة عقد مجامع دينية تضم ممثلين من جميع الكنائس في العالم المسيحي للفصل في أمر الخلافات بين الرابين حول

---

(٦) الرها مدينة قديمة من بلاد بين النهرين كانت تعرف باسم «الرهو» في القرن الرابع قبل الميلاد، وبعد أن مصرها السلوقيون سنة ٣٠٤ ق.م. سمَّاها سلوقس الأول ايديسا (Edesse) على اسم إحدى مدن تراقية ودعاها اليونانيون (كاليرهو)، وصارت تُعرف عند الاراميين بـ «اورهاي» وعُرّبت بالرها، واسمها المعروف اليوم «اورفة». وقامت في الرها مملكة عربية دامت حوالى ثلاثة قرون ونصف قرن وذلك بين سنة ١٣٢ ق.م. وسنة ٢١٦ ب.م. حكم خلالها ٢٣ ملكاً وُجدت أسماؤهم مرتَّبة ترتيباً زمنياً بحسب حكمهم في حولية الرها المدونة حوالى سنة ٥٤٠ م كما وجدت أسماء بعضهم على نقود ضُربت في أيامهم.

وقد كان للرها شأن خطير في ازدهار وانتشار الأدب السرياني المرتبط بالنصرانية بوجه عام وبالنسطورية بوجه خاص. فكانت الرها والحالة هذه من المراكز الدينية الكبرى في عهد الأمبراطورية البيزنطية حتى فتحها المسلمون على يد عياض بن غنيم سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م)، ثم استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٨ م وجعلت أولى المقاطعات اللاتينية إلاَّ أن المسلمين عادوا فاستردوها سنة ١١٤٤ م، وبقيت الرها مدينة مسيحية في ظل حكم الأتراك. (انظر: «تاريخ كلدو واثور» تأليف ادي شير، ١٩١٢، ١: ١٦٩ ـ ١٧٤؛ «المفصل في تاريخ العرب» للدكتور جواد علي، ٢: ٦١٩ ـ ٦٢٢؛ دائرة المعارف البريطانية، ١٩٦٥، ٧: ٩٦٨ مادة ايديسا).

(٧) نيقية (Nicaea) هي بلدة ايزنيك التركية الحديثة اتخذها ثيودور الأول بين سنة ١٢٠٤ و١٦٢١ م عاصمة للأمبراطورية البيزنطية، وقد اشتهرت في تاريخ المسيحية لانعقاد هذا المجمع الكنيسي سنة ٣٢٥ م الذي حدّد فيه معنى النصرانية وأصولها ووضع تعريف للإيمان الصحيح (حول أعمال مجمع نيقية انظر: «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية» لمؤلفه سويريوس يعقوب توما، بيروت ١٩٥٣، ص ١٩٧ ـ ٢٠٤).

أصول الديانة المسيحية واتخاذ القرارات التي يُتفق عليها على أن تُصبح هذه القرارات ثابتة ورسمية يجب أن يعمل بها جميع المسيحيين. فعُقد أربعة مجامع دينية في القرنين الرابع والخامس، عُقد أوّلها في ٢٠ مايس في سنة ٣٢٥ م في نيقية حيث اتخذ القرار بإثبات ألوهية المسيح وحدّد بعض النقاط المختلف عليها في المسيحية. وفي هذا الاجتماع حكم على آريوس بالهرطقة والضلال (انظر الفقرة ٥ من هذا الفصل). وقد دُونت قوانين نيقية باللغة اليونانية ثمَّ نُقلت إلى السريانية. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكنيسة الشرقية تحت حماية ورعاية الدولة وتحت رقابتها إلى حد ما ولو أن المسيحية لم يُعترف بها ديانة رسمية إلاَّ في أيام غراطيان سنة ٣٦٨ م.

أمَّا المجمع الثاني فعُقد في القسطنطينية سنة ٣٨١ م في عهد ثيئودوسيوس الأول (٣٧٩ ـ ٣٩٥ م) انتهى بإقرار الرأي القائل بألوهية روح القدس، وبذلك تقرَّر التثليث في الديانة المسيحية وأصبح هو العقيدة الرسمية التي يجب أن يعتنقها كل مسيحي ويُحكم بالكفر مَن يقول بغير ذلك.

وكان أن أحدث إعلان أمبراطور بيزنطة المسيحية ديناً لأمبراطوريته وإعلان نفسه حامياً لكل المسيحيين الساكنين خلف حدود بيزنطة رد فعل مباشر لدى ملوك فارس الذين اعتبروا جميع المسيحيين الساكنين في حدودهم أعداءً للأمبراطورية. ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ٤٣١ م الذي ظهرت فيه الفرقة النسطورية المناوئة لكنيسة القسطنطينية ظلَّ المسيحيون مضطهدين من قبل الساسانيين إذ حُرِّم عليهم القيام بطقوسهم الدينية. ولاضطهاد المسيحيين في المملكة الفارسية سببان ديني وسياسي فالديني، لأنَّ الدين المسيحي كان مضاداً للمجوسية دين المملكة يومذاك، أمَّا السياسي فلأنَّ الكنيسة في هذه المملكة كانت خاضعة دينياً لسلطة الكرسي الأنطاكي الذي يقع في المملكة الرومانية. وكان اليهود يشون بالمسيحيين إلى السلطة الفارسية.

ومع أنه تمخَّض عن المجمعين (مجمع ٣٢٥ ومجمع ٣٨١ م) إقرار مبادئ عامة تمَّ الاتفاق عليها، لكنها تركت وراءها خلافات في أمور فرعية أدَّت على مر الزمن إلى انقسامات في الكنيسة المسيحية. والمسيحية شأنها شأن الأديان الأخرى تأثَّرت بمؤثرات عديدة حتى ظهرت فيها المذاهب والشيع، وصار كل مذهب يتهم المذهب الآخر بالهرطقة والخروج على أصول الدين والجنوح عن الصواب وكان أكثر الجدال بين هذه المذاهب يدور حول موضوع طبيعة المسيح وعلاقة الأم بالدين وموضوع النفس؛ «هل المسيح إنسان، أم هو رب، أم هو

من خلق الرب؟.. وهل هو والرب سواء، أو هو منفصل عن الرب؟.. هذه الأسئلة وأمثالها مما يتصل بطبيعة المسيح شغلت رجال الكنيسة وكتّلتهم كتلاً، كل كتلة ترى أن رأيها في طبيعة سيدها هو الرأي الصواب، وأنه هو الدين الحق القويم، وأن ما دونه ضلال وباطل. لذلك كفّر بعضهم بعضاً، واتهمت واحدة منها الأخرى بالهرطقة والبدعة. وكان من هذا الاختلاف ظهور المذاهب في هذا الدين الجديد.. وتولّد عن هذا الجدال ظهور الأريوسية أتباع «آريوس» و«السبيلية» وأتباع الثالوث ومذاهب أخرى نبعت من تلك البلبلة الفكرية التي أظهرها الاختلاف في طبيعة المسيح(٨).

٥ ـ التوحيد والثالوث في الديانة المسيحية:

إن الخلاف التقليدي القديم بين الشرق والغرب أخذ يصطبغ بصبغة دينية بالاضافة إلى النزعة السياسية التي كانت تطغى عليهما، وذلك بعد ظهور المسيحية واعتناق الأمبراطور الروماني للديانة المسيحية سنة ٣٣٢ م ثم تقسيم الأمبراطورية الرومانية إلى غربية ومركزها روما وشرقية ومركزها القسطنطينية سنة ٣٦٤ م. والخلاف الجوهري بين الشرق والغرب في هذه المرحلة كان دينياً وعقائدياً يدور حول الخلاف بين العقيدتين، عقيدة التوحيد التي تدعو إلى عبادة الإله الواحد لا شريك له وقد نمت جذورها في الشرق العربي وبين عقيدة الثالوث (الأب والابن وروح القدس) التي نمت في الغرب.

أ ـ التوحيد عقيدة شرقية عربية الأصل

إن الكنعانيين العرب كانوا أوّل مَن عرف وحدانية الإله في ثقافتهم الدينية وأول مَن نطق باسم الله خالق السموات والأرض، وكان يعرف باسم «إيل» أو إله أو الله في العربية الفصحى. والمعلوم أن ديانة العرب القديمة في جزيرة العرب كانت قائمة على الوثنية، فلما هاجر سكان الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب إثر الجفاف الذي حلَّ ببلادهم جاؤوا بديانتهم إلى مستوطناتهم الجديدة مع لغتهم وثقافتهم حاملين معهم آلهتهم وأهمها الإله القمر «سين» إذ كانت عبادة هذا الإله شائعة في جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريباً جنوبها وشمالها، كما كان معروفاً في بلاد الحبشة. وكان الإله الشمس شائعاً لدى القبائل العربية أيضاً، حيث كان مؤنثاً عند السكان في جنوبي الجزيرة العربية ومذكراً عند الشماليين،

(٨) الدكتور جواد علي «المفصل في تاريخ العرب»، ٦: ٦٢٤.

وعلى العكس من ذلك كانت الزهرة إلهاً مذكراً عند الجنوبيين ومؤنثاً عند الشماليين. ويرى الدكتور ديتلف نيلسون إن هذا التغيير في جنس الشمس والزهرة يشير إلى انتقال الديانة السامية العربية القديمة من الجنوب إلى الشمال وتغيرها بسبب البيئة الجديدة، ويعتقد أن تسمية سيناء مأخوذة من الإله سين المذكور. وهناك ما يدل على أن بعض القبائل العربية في جزيرة العرب كانت تمارس التوحيد، وكان هؤلاء يعرفون بالأحناف[٨أ]. هذا مع العلم أن ذكر (الله) كان شائعاً عند شعراء الجاهلية قبل الإسلام فمعظمهم كان يدرك معنى الإله العلي الذي يهيمن على كل شيء خالق السموات والأرض. فقد جاء في ديوان امرئ القيس الشاعر العربي الشهير ما يشير بوضوح إلى رفضه عبادة الأصنام وميله إلى وحدانية الإله[٨ب] فكان الاصطلاح «ملة إبراهيم حنيفاً» شائعاً عند العرب قبل ظهور الإسلام وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكري العرب سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان إذ كانوا يرون أن التقرب إلى الله بالحجارة أمر لا قيمة له. لذلك فقد أطلق لقب الأحناف على مَن عرف بنبذه الشرك وميله إلى التوحيد[٨ج]. والمسعودي يؤيد ذلك بقوله: «إن العرب كانت في جاهليتها فرقاً، فمنهم الموحد المقر بخالقه، المصدق بالبعث والنشور، موقناً بأنَّ الله يتيب المطيع، ويعاقب العاصي»[٨د] ويذهب الدكتور ديتلف نيلسون في مجرى بحثه عن تاريخ الأديان إلى أن «جزيرة العرب هي الوطن الأصلي للعنصر السامي والشعوب الشمالية التي نشأت فيها الحضارات السامية الشمالية الرفيعة، والدين العربي القديم هو الخطوة الأولى السابقة للدين البابلي والآشوري المعقد، كما أن ذلك الدين العربي القديم هو الذي مهَّد لهذا التطور التاريخي للدين العبري (اليهودي) مع حرصه على الاحتفاظ بدين الآباء دين الصحراء البدائي الذي دان به الشعب وأجداده الأولون، كما أنه بقي زمناً طويلاً موضوع نزاع وعراك شديدين بين العقيدتين الدينيتين السامية الشمالية والسامية الجنوبية والذي تطور أخيراً إلى الثالوث الإلهي (الآب والابن وروح القدس) ومن ثم خطا خطوات أخرى في التوحيد

(٨أ) «حضارة العرب» للدكتور غوستاف لبون، ترجمة عادل زعيتر، ص ٩٩ ـ ١٠٠ (ط ٤).

(٨ب)انظر: «أديان العرب قبل الإسلام»، مجلة العربي، العدد ١٦٨، تشرين الثاني ١٩٧٢، ص ٤٤ ـ ٤٩.

(٨ج) ولفنسون، «تاريخ اليهود في بلاد العرب»، ص ٧٨ ـ ٨٠.

(٨د) «مروج الذهب»، ج٢ ص ١٠٢.

المسيحي في صورته القديمة التي نعرفها في الحضارة العربية القديمة»[٨-ـ].

وكانت الديانة الكنعانية العربية أرقى ديانات الأمم السامية الوثنية، فقد احتفظت بطابعها البدوي السامي وبالتقاليد القديمة السائدة في جزيرة العرب، وكان أكبر آلهة الكنعانيين العرب وأعلاها مقاماً الإله «إيل» الذي لقب بالإله العلي أو الإله العظيم (Supreme God)، وهو اسم الإله «إيل» الوارد في التوراة وقد ورد اسمه فيها ٢٢٩ مرة واطلق عليه اسم الله (تك ٢٨: ١٧ ـ ١٩) وقد اقترن الإله إيل بإبراهيم الخليل وتؤكد التوراة أن الإله «إيل» هو الإله الذي كان يعبده إبراهيم الخليل، والدليل أن كلمة إيل عربية الأصل إن ملوك العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا يقرنون أسماؤهم باسم الإله إيل تيمناً وتبركاً به على غرار التسميات العربية الحديثة باضافة اسم الله إلى اسم الشخص مثل اسم عبدالله وعبد الإله وعبد الخالق الخ . . .

وكان للإله إيل المكانة الرفيعة نفسها عند الآراميين، فقد ورد اسمه مضافاً إلى أسماء بعض ملوكهم، فاشتهر بين الملوك الآراميين الملك «متى إيل» ملك أرباد الذي وقع معاهدة دفاع مشترك مع الملك الآشوري نيراري (٧٥٤ ـ ٧٤٥ ق.م.) (مجلة سومر، ١٩ (١٩٦٣) ص ١١٩) ـ كما اتخذ الهكسوس، وهم من أصل عربي بدوي كما يُعتقد وحكموا مصر بين سنة ١٧٨٥ وسنة ١٥٨٠ قبل الميلاد، اسم الإله إيل للتبرك به فأضيف إلى أسماء بعض ملوكهم إذ ورد اسم أحد ملوكهم باسم «يعقوب إيل» وقد ذكر اسم مكان باسم «يوسف إيل». ومما يثبت جلياً أن إيل أو الله كلمة عربية الأصل إن أكثر ملوك معين وسبأ كانوا يضيفون اسم الإله إيل إلى أسمائهم تبركاً به. ويقول الأستاذ الجميلي في كتابه «تاريخ العرب في الجاهلية» أن إيل تعني الرب أو الإله وقد وردت في مختلف اللهجات العربية القديمة، في المعينية والسبئية والبابلية والآرامية والكنعانية والسريانية والعبرانية فتطورت عنها كلمة الإله أو الله في العربية الفصحى». ويذكر قاموس الكتاب المقدس (الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧١، ص ١٤٢ أن كلمة إيل سامية ومعناها في الآكدية الإله بصورة عامة، أمَّا في الأوجريه (نسة إلى أوغاريت) فإنَّها تعني أبو الآلهة.

وفي موضوع الإله إيل ومكانته عند العرب يقول الدكتور ديتلف نيلسون في

(٨هـ) الدكتور ديتلف نيلسون ورفاقه، «التاريخ العربي القديم»، الترجمة العربية ص ٥٣.

بحثه التاريخي عن الأديان في شبه جزيرة العرب: «أن هناك اسماً واحداً بين أسماء آلهة العرب يجب أن نذكره وهو مشترك بين جميع الأسماء وبه تتصل أكبر مشكلة في الديانات السامية وذلك الاسم هو «ال» أو إله بمعنى الله، وكان هذا الإله إل معروفاً في كل مجاميع النقوش العربية القديمة، فذلك الإله وذلك الاسم كانا إذن معروفين فيها قبل الإسلام ليس فقط في شمالي بلاد العرب بل وفي كل جزيرة العرب». ويرى العلامة «شافر» أن ما يسبغه الكنعانيون من نعوت التعظيم والتفوق لإله واحد فوق الجميع يدل دلالة واضحة على ميل الكنعانيين لتقبل عقيدة التوحيد(٨و). هذا ويؤيد العلامة ديسو (Dussaud) في كتابه «العرب في سورية قبل الإسلام» (ص ٥٥ ـ ١٦٣) «إن النقوش الصفوية أخبرتنا وللمرة الأولى وبدليل لا يقبل الشك كيف أن الله كان معروفاً لدى العرب وكان مقدساً خاصة في المجمع الإلهي العربي الشمالي قبل أن يبشر به الإسلام كإله للتوحيد». وقد ورد اسم الإله إيل في الكتابات الفينيقية بصيغة «إيلوس» وهو الإله إيل الكنعاني نفسه (يوسف الحوراني «نظرية التكوين الفينيقية»، ص ٦٣). وفي بحثه عن ديانة العرب قبل الإسلام ذهب لودولف كريل (Ludolf Kreh) إلى أن العرب القدماء كانوا من الموحدين في الأصل غير أنهم تركوا التوحيد بعدئذ وعمدوا إلى عبادة النجوم والأصنام والأحجار والأشجار، وبذلك انحطت الحالة الدينية عندهم (جواد علي، مفصل العرب قبل الإسلام ١ : ١٣٦).

يتضح مما تقدّم أن الكنعانيين العرب إجمالاً سبقوا أُمم العالم طراً في نشر أرقى ديانات الأُمم السامية الوثنية، لذلك كان تأثيرهم الديني لا يقل عن تأثيرهم العلمي. وفي ذلك يقول ولفنسون: «وللكنعانيين عدا تأثيرهم العلمي والصناعي على العالم المتمدن، فضل عظيم آخر وهو تأثيرهم الديني في جميع الأمم السامية، فقد كانت ديانتهم أرقى ديانات الأُمم السامية الوثنية لذلك تأثرت بها ديانات بابل وورث الآراميون والإسرائيليون والعرب هذا التأثير» (تاريخ اللغات السامية، ص ٥٣).

وفي موضوع عبادة الأصنام يقول الدكتور منيف الرزاز: «وفي الجاهلية لم يكن العرب يعبدون الأصنام وإنما كانوا يتخذونها إلى الله زلفى. واللات والعزى ومناة هم في زعم العرب بنات الله وليسوا آلهة وهبل هو (هابل). و(هاء) في كثير من اللغات السامية أل التعريف والبعل هو الإله الله. والحنيفية دين إبراهيم

(٨و) C.F.A. Schaffer, «The Cuneiform Texts of Ugarit», London, 1939, pp. 59-72.

الموحد كانت منتشرة كذلك. ولكن حين تفاقم اضطهاد المسيحيين الشرقيين من قبل الدولة الرومانية التي كانت تعذبهم وتصلبهم وتقتلهم وتنفيهم من الأرض لأنهم يوحدون في المسيحية، كان الرد الطبيعي لهم بعد ذلك أن يولد الإسلام ملخصاً لكل هذه الحقبة السابقة وأن يطرح التوحيد بكلمات بسيطة عندما قال: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾. (الجذور التاريخية للقومية العربية، مجلة آفاق عربية، آذار ١٩٧٨، ص ٥).

ب ـ التوحيد والتعدد في الديانة المسيحية:

لم أجد فيما قرأت عن تاريخ المسيحية والخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية أوضح عرضاً وأدق تلخيصاً وأوسع شمولاً مما كتبه الدكتور منيف الرزاز نثبته هنا بالنص لأهميته قال: «إن الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية يتمثل في النزوع إلى التوحيد في كنيسة الشرق يقابله النزوع إلى التعدد حسب الفلسفة اليونانية الأفلاطونية في كنيسة العرب. والمعلوم أن المسيحية عطاء شرقي وأنها وُلدتْ في القدس ولم تولد في روما. هذه المسيحية منذ أن نشأت انقسمت إلى فرعين أساسيين، فرع عمّ منطقة الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية وفرع نقله بولص وبطرس عن طريق أاثينا إلى روما فانتشر في أوروبا... وكانت المسيحية الشرقية دائماً تختلف مع المسيحية الأوروبية فيما يتعلق بالتوحيد والتثليث.. فمنذ فجر التاريخ وحتى ظهور الإسلام ثمة نزوع مستمر إلى التوحيد، هذا النزوع إلى التوحيد خاص بأمم المنطقة التي هي الوطن العربي اليوم.. ومن هذا النزوع وُلِدَ بعد ذلك الدين اليهودي[٨ز] ثم وُلِدَ الدين المسيحي.. وهذا النزوع ترجم نفسه إلى نزوع إلى التوحيد مستمر وقائم ممتد على مدى التاريخ. أخناتون في مصر كان أول مَن طرح التوحيد. وحين كانت الآلهة متعددة في شرق الوطن العربي وأيضاً في الجزء الإفريقي ممثلاً بالفينيقيين كان هناك دائماً إله الآلهة الذي كان يسمَّى إمَّا بعل أو إيل، وإيل تطورت لتصبح إله، وإيل إله، الله. والله لم يذكر اسمه عند العرب لأول مرة بعد الإسلام، كثيرون منا ينسون أن الرسول (ﷺ)

(٨ز) إن الدين اليهودي رغم أنه يعتبر ديناً يدعو إلى التوحيد إلاّ أنّه لا يمثل التوحيد الكامل بمعناه الحقيقي (Monotheism) فهو يدعو إلى مبدأ التفريد (Honotheism) وهو المبدأ الذي اعتنقته الأقوام القديمة عندما كانت كل مدينة تختص بإله واحد من بين مجموعة الآلهة بدون نبذها عبادة الآلهة الأخرى والقضاء عليها (طه باقر، «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة»، ط١، ج٢، ص ٣٠٣).

اسمه محمد بن عبدالله أي أن كلمة الله كانت موجودة في الجزيرة العربية قبل ولادة الرسول (ﷺ). (انظر ما تقدّم عن دور العرب في ابتداع التوحيد).

«أمّا الخلاف بين الكنيسة المسيحية الشرقية والكنيسة الغربية فيتمثل في النزوع إلى التوحيد في كنيسة الشرق يقابله نزوع إلى التعدد في كنيسة الغرب: فالمذهب الكنسي الغربي يقول إن المسيح له طبيعتان، طبيعة إلهية، وطبيعة إنسانية في آن معاً وإن هاتين الطبيعتين مختلطتان اختلاط النبيذ بالماء يعني لا تميز بينهما. أما مسيحيو الشام ومصر فقالوا إن للمسيح طبيعة واحدة فقط ولذلك سموا في الأدب المسيحي «مونوفيزايتس» (Monphysites) أي المؤمنين بالطبيعة الواحدة بينما سمي المسيحيون الغربيون (ديوفيزايتس) أي المؤمنين بالطبيعتين. إذن هذا النزوع إلى التوحيد كان دائماً موجوداً ونراه في المسيحية حتى القرن الرابع والخامس والسادس الميلادي. ولقد تعرّض مسيحيو هذه المنطقة إلى اضطهاد شديد جداً من الدولة الرومانية وكان اضطهاد المسيحية عنيفاً في الشام وفي مصر وشمال أفريقية بحيث لجأ معظم المسيحيين الشرقيين إلى الصحارى يقيمون فيها الصوامع والأديرة بعيداً عن شرطة الدولة الرومانية. أما الدوناتيون بشمال ألافريقيا فقد قاموا بثورة فلاحية اجتماعية ضد الدولة الرومانية وضد سلطة البابا في نفس الوقت.. لذلك كانت المسيحية الشرقية تسمي مذهب روما وبيزنطة المذهب الملكاني أي مذهب الملك، مذهب الحكومة المعادية للشعب(٨ط). وهكذا كان الاختلاف بين الكنيستين يعبر عن الثورة ضد السلطة الرومانية الحاكمة لشعوب هذه المنطقة. ولذلك فانتشار المسيحية في القرون الثلاثة الأولى كان بين شعوب الوطن العربي وبين العبيد في روما نوعاً من الثورة ضد السلطة الرومانية اليونانية القائمة. ولم تصبح الدولة بطبيعة الحال مسيحية إلاّ على زمن قسطنطين وبعد قسطنطين في أوائل القرن الرابع الميلادي»(٨م). وينتهي الدكتور الرزاز بقوله «إن النزوع إلى التوحيد كان قائماً في جميع الحضارات العربية، فمنذ فجر التاريخ وحتى الإسلام ثمة نزوع مستمر إلى التوحيد.. والمسيحية منذ أن نشأت انقسمت إلى فرعين أساسيين، فرع عم في منطقة الشام

(٨ط) انظر ما يلي في الفقرة (١٢) عن تدخل الحارث بن جبلة ملك الغساسنة وابنه المنذر وسعيهما في إطلاق الحرية لجميع النصارى كل على مذهبه.

(٨م) الدكتور منيف الرزاز، «الجذور التاريخية للقومية العربية»، مجلة آفاق عربية، عدد آذار ١٩٧٨، ص ٢ ـ ٥.

والعراق ومصر وشمالي أفريقيا وفرع نقله بولص وبطرس عن طريق أثنيا إلى روما فانتشر في أوروبا وكانت المسيحية الشرقية دائماً تختلف مع المسيحية الأوروبية.

وكان قد ظهر الاختلاف بين الكنيستين لأول مرة عندما طرح آريوس بطريرك الإسكندرية رأياً ضد الكنيسة الغربية. وآريوس مولود في ليبيا سنة ٢٥٠م. فقال إن الله واحد لا يلد ولا يولد وأن المسيح ليس ابناً لله وأنه بشر ولكنه أكمل البشر، ولأنه أكمل البشر فقد اصطفاه الله. ولذلك فالمسيح هو بتعبير آريوس روح من الله وكلام منه. ولقد استدعي آريوس إلى القسطنطينية وعقد له أول مجمع كنسي في نيقية في ٢٠ مايس من سنة ٣٢٥ م لبحث المواضيع العقائدية بأمر الأمبراطور قسطنطين وحوكم بالهرطقة ونفي ومات في المنفى في القسطنطينية سنة ٣٣٥ م[٨ك]. والفنداليون (Vandals) الذين احتلوا شمال أفريقيا بعد ذلك بمدة قصيرة جداً كانوا آريوسيين أي تابعين لآريوس. ثم ظهرت الفرقة السبيلية (Sabellianism) في حوالى سنة ٢٣٠ م وهي نسبة إلى الشخص الذي ابتدع تعاليمها وهو سبيليوس (Sabellius) الذي يقول إن الله ليس الاب والابن وروح القدس بل بالعكس إن هذه الأقانيم الثلاثة كلها مظهر لوحدة الإله، والمسيح شخص مثل الأشخاص الآخرين. وسبيليوس مثل آريوس من أصل ليبي أيضاً من أهل بلدة بنتابوليس (Pentapolis). وقد لاقت دعوته رواجاً في بلده أول الأمر وبعد ذلك في المقاطعات المجاورة، فقاومها رجال الدين المسيحي وفي مقدمتهم ديونيسيوس (Dionisius) أحد أساقفة الإسكندرية. ثم ذهب سبيليوس إلى روما في أوائل القرن الثالث ولكن دعوته لم تلق تشجيعاً في حين أن معتنقيها في الشرق ازدادوا في أعقاب منتصف القرن الثالث الميلادي. والسبيلية أصبحت بصورة إجمالية تسمية لجميع مظاهر عقيدة التوحيد التي تنطوي على الاعتراف بمقام المسيح من حيث قدسيته الدينية[٨ل].

وأخيراً ظهرت النسطورية ففاقت كل زميلاتها انتشاراً كما سيلي في الحديث عن النسطورية[٨ي]. وهكذا كان المسيحيون الشرقيون آريوسيين وسبيليين ونساطرة ويعاقبة ودوناتيين. الأريوسيوس والسبيليون في ليبيا والنساطرة في شمال العراق وشمال إيران ومنطقة أرمينيا واليعاقبة في سوريا ومصر والدوناتيون في شمال افريقيا.

(٨ك) Encycl. Brit., 1965, 2:381-383, 40, «Arianism, Arius».

(٨ل) Ibid., Vol. 19, p.791 «Sabellianism - Sabellianus».

(٨ي) Ibid., Vol. 16, pp. 251-253, «Nestorians - Nestorius». وانظر ما يلي الفقرتان ٨ و٩.

٦ ـ الكنائس الأربع الرئيسية قبل الانقسام:

وهكذا فقد كانت الكنيسة المسيحية في بدايتها، أي قبل الانقسامات الداخلية، مؤلَّفة من أربعة كراسي كنيسية، هي الأنطاكي والإسكندري والروماني والقسطنطيني، وكان أكبر هذه الكراسي الكرسي الأنطاكي الذي كان يشمل آسيا كلها فكانت له سلطة على كل الشرق المسيحي على اختلاف أجناسه. وقد أسَّس هذا الكرسي الأنطاكي القديس بطرس رئيس الرسل وصار أوَّل بطاركته. وكان الكرسي الأنطاكي يرأس في أوج عزه اثني عشر كرسياً مطرانياً ومئة وسبعة وثلاثين كرسياً أسقفياً، أي كانت له سلطة على أساقفة بلاد سورية وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين وقليقية وقبرص وما بين النهرين إلى أقصى بلاد الفرس والهند والصين. وهكذا امتدت بطريركية أنطاكية إلى الكنائس التي وراء حدود المملكة الرومانية في آسيا حتى الهند.

وكانت لغة الأبرشية الأنطاكية اللغة السريانية وصارت أبجديتها حروف هجاء لمعظم الأمم الشرقية، وبها تناقش المجمع الرسولي الأورشليمي سنة ٥١ م وبهذه اللغة احتفلت الكنيسة المسيحية لأول مرة بالقربان المقدس. وكانت لغة اليهود في الأصل السريانية أيضاً وكانت هذه لغتهم في أيام المسيح. ولما تنصَّر الأرمن على يد القديس غريغوريوس المنور في سنة ٣٠١ م بعد أن كانوا يدينون بالمزدكية الوثنية كتبت الكنيسة الأرمنية بالأبجدية السريانية ونبغ بعض أساقفتها بالسريانية، وفي حدود سنة ٤٤٠ م وضع أحد علمائهم الأبجدية الأرمنية ونقل الكتاب المقدس من السريانية إلى الأرمنية(٩).

وكان مطران سلوقية وقطيسيفون أو الجاثليق يدير دفة الأمور الكنيسية في المملكة الفارسية خاضعاً للكرسي الأنطاكي ومؤيَّداً منه بل نائباً عنه في هذه المملكة.

أمَّا الكتاب المقدّس فمن المعلوم أن أسفار العهد القديم دُوِّنت باللغة العبرية ما عدا سفر أيوب الذي كُتب أولاً بالآرامية ثم تُرجم إلى العبرية وما عدا بعض سفر دانيال وسفر عزرا وسفر نحميا الذي دُوِّن بالسريانية. وكانت أول ترجمة للعهد القديم إلى اليونانية قد تمَّت في عهد بطليموس فيلادلفوس ملك

(٩) «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية» لمؤلفه سوبريوس يعقوب توما، بيروت ١٩٥٣، ص ٧٨ ـ ٨١، ١٧٠ ـ ١٧١.

مصر (٢٨٠ ـ ٢٤٧ ق.م.) وهي الترجمة التي اشتهرت بالسبعينية. ثم تُرجم العهد القديم إلى اللاتينية في القرن الأول للمسيح، وفي أواخر القرن الأول نقل العهد العبري إلى السريانية بواسطة بعض اليهود المتنصرين وعرفت هذه الترجمة بالبسيطة واستعملتها الكنيسة السريانية دون السبعينية. أمَّا أسفار العهد الجديد فقد دُوِّنت باللغة اليونانية ما عدا إنجيل متى والرسالة إلى العبرانيين وهي لغة الأدب والاجتماع عصرئذ. ولا شك في أن ترجمة سريانية للعهد الجديد وُجدت في البلاد السريانية في أوائل القرن الثاني. ومن المرجح أن الكتاب المقدس تُرجم إلى اللغة الحبشية (لغة الجعيز) في أواخر القرن الخامس للميلاد.

وقد أُسِّست في سنة ٣٩٠ م مدرسة لاهوتية كبرى في أنطاكية، وتشير الأخبار الكنيسية أنه كان في أنطاكية على الدوام مدرسة للعلوم الدينية وأخرى شهيرة للعلوم الفلسفية العالية كان يُخرج فيهما أساتذة كبار وعلماء.

وقد شهد الكرسي الأنطاكي هزيمة فقد فيها الكثير من نفوذه إذ استولى عليه الآريوسيون في منتصف القرن الرابع وما يليه وكان هؤلاء يدعون إلى الأخذ بنظرية كون المسيح مخلوقاً إنسانياً وليست له صفة الربوبية لأن الله ثابت لا يتغير ولا شريك له ولا يمكن أن يُوصف الابن القابل للتغير بالإله(١٠).

أمَّا الكرسي الإسكندري فقد كانت سلطته على أفريقيا (بلاد مصر وأثيوبيا وليبيا) وكانت لغة الكنيسة الإسكندرية في بداية الأمر اليونانية، وكان في الإسكندرية في هذا الزمن مدرسة لاهوتية كبرى مشهورة تسير على فلسفة أفلاطون المؤسسة على الرموز غير أن المدرسة الأنطاكية سلكت طريقة أخرى مستندة على فلسفة آرسطو المبنية على البرهان والمنطق، وسارت المدرستان على طريقتين فلسفيتين مختلفتين في تفسير الكتاب المقدّس، فالمدرسة الإسكندرية كانت تطلب لكل آية ثلاثة معان وهي الروحي والحرفي والرمزي. أمَّا المدرسة الأنطاكية فقد اعتنت بالتفسير الحرفي اللغوي فقط. وقد أفرط تلامذة المدرستين بسلوكهما هاتين الطريقتين الفلسفيتين في تفسير الكتاب المقدّس الأمر الذي أدَّى إلى ظهور بعض البدع(١١).

(١٠) Ency Brit., 1965, 2: 381-383, 401.

(١١) «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

وأما الكرسيان الروماني والقسطنطيني فقد كان هناك خلاف بينهما منذ البداية، فبابا روما كان يعتبر نفسه أعلى سلطة في الكنيسة لأن الحواريين بولص وبطرس وغيرهما من المسيحيين الأوائل استشهدوا فيها، في حين أن أباطرة القسطنطينية كانوا يعتبرون كرسيهم يمثل أعلى سلطة للكنيسة. كما كان هنا خلاف آخر غاية في الأهمية بين كنيسة الشرق وكنيسة الغرب، فقد كانت اللغة اليونانية هي السائدة في الشرق واللغة اللاتينية هي السائدة في الغرب، وعند الترجمة من الأصل اليوناني إلى اللغة اللاتينية كان معنى الكلمات الدينية يتغير قليلاً كما تغيّرت معتقدات الدين وطقوسه. وأثار هذا كثيراً من الجدل غير الودي بين الكرسيين، وقد زادت هذه الخلافات مع مرور الزمن زيادة كبيرة، ثم أثير نزاع بينهما حول عبادة التماثيل والصور للشهداء والقديسين وتلاميذ يسوع وأمه مريم وليسوع نفسه. فكانت هذه الخلافات سبباً في انقسام الكنيسة الرومانية قسمين، كنيسة الشرق الأرثوذكسية وكنيسة الغرب الكاثوليكية. وفي أثناء ذلك غزا البرابرة أوروبا واستولوا عليها وتحوّل هؤلاء البرابرة إلى المسيحية تحت تأثير بابا روما، فزاد ذلك من سلطان الكنيسة الغربية في روما وسيطرت تقريباً على معظم أوروبا وأرسلت بعثات التبشير في كل مكان لتنصير جميع البشر، وجمع بابا روما في شخصه سلطتي السماء والأرض وصار يوصف بأنَّه ظل الله في الأرض وخليفة المسيح وأمير جميع الأمم والممالك. هذا في حين أن الكنيسة الشرقية آخذة في التدهور والانحلال، إذ شهدت انقسامات داخلية أضعفت كيانها(١٢).

٧ ـ أول انقسام في المسيحية ـ ظهور النسطورية:

وكان أول انقسام بارز في الكنيسة المسيحية ظهور العقيدة النسطورية نسبة إلى معتنقها نسطوريوس الذي نصبه الأمبراطور ثيئودوسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠ م) بطريركاً في القسطنطينية سنة ٤٢٨ م. وتعاليم نسطوريوس تدعو إلى أن للسيد المسيح طبيعتين (أقنومين): أقنوم الإنسان يسوع وأقنوم الله، أي هو إله تجسد في فترة معينة فأصبح إنساناً، ثم عندما توفي رجع إلهاً ولذلك له طبيعتان ولكنهما مثل الزيت والماء لا يختلطان. قال النساطرة لا يجوز أن تسمَّى مريم العذراء أم الله بل هي بشر ولدت المسيح بالشخصية البشرية وأن المسيح مات على الصليب

(١٢) «قصة الديانات» تأليف سلمان مظهر، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٧.

كإنسان[١٣]. فاعتبرت تعاليم نسطوريوس هذه بدعة ضالة تخالف المبادئ العامة التي تدين بها الكنيسة، وكان الحكم على نسطوريوس وأتباعه في مجمع إيفيسس[١٤] المنعقد سنة ٤٣١ م بالضلال والإلحاد فعزل نسطوريوس من أسقفية القسطنطينية، هذا مع العلم أن أسقفية أنطاكية وقفت إلى جانب نسطوريوس مؤيِّدة لتعاليمه، ولكن «سيريل» بطريرك الإسكندرية وأتباعه ومطارنة روما كانوا ضد نسطوريوس وظلُّوا متمسكين بالرأي القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح وصار هؤلاء يعرفون بالمنوفيسيتيين (Monophysites)[١٥] أي المؤمنين بالطبيعة الواحدة للمسيح. ولم يمض وقت طويل حتى صار للنساطرة أتباع كثيرون مما أدَّى إلى نمو النسطورية وبروز الانشقاق الخطير في الكنيسة المسيحية[١٦].

٨ ـ انتشار النسطورية في الشرق:

وكانت الرها المركز الرئيس للثقافة النسطورية ومن أهم معاقل الأدب

---

(١٣) قضى نسطوريوس سنواته الأولى في «جرمانيسيا» في سورية (ماراس الحالية في جنوب تركيا) ودرس في أنطاكية حيث تشرب بمبادئ مدرستها اللاهوتية الشهيرة فأصبح راهباً في أحد الأديرة، عيِّن قسيساً فاشتهر بالزهد والتعبُّد واستقامة الرأي وصحة المعتقد والفصاحة. وعلى هذا رشَّحه الأمبراطور ثيئودوسيوس الثاني إلى كرسي الأسقفية (أبرشية أستامبول سنة ٤٢٨ م).

(١٤) ايفيسس (Ephesus) مدينة يونانية قديمة تقع بقاياها بالقرب من قرية «سلجوق» في مقاطعة أزمير التركية.

(١٥) انظر دائرة المعارف البريطانية ٩٦٥، ١٥: ٧٤٦.

(١٦) كان منشأ الخلاف في الرأي نشوب خصومة شخصية بين «سيريل» بطريرك الإسكندرية وبين نسطوريوس بطريرك القسطنطينية فاشتد هذا الخلاف بينهما حتى أصبح من الأحداث الخطيرة في الأحوال الداخلية، مما اضطر الأمبراطور ثيئودوسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠م) أن يدعو إلى اجتماع المجمع الديني حيث عقد في إيفيسس في السابع من حزيران سنة ٤٣١ م، فانتهز «سيريل» تأخُّر وصول مطارنة أنطاكية وعقد اجتماعاً برياسته حضره مئتا مطران وقرروا خلع نسطوريوس من منصبه كبطريرق القسطنطينية، إلاَّ أن نسطوريوس رفض الاعتراف بهذا القرار. ثم حضر بعد ذلك مطارنة أنطاكية في ٢٦ حزيران وعقدوا اجتماعاً بدورهم وقرروا خلع «سيريل» من منصبه كبطريرق الإسكندرية. وفي ١٥ تموز حضر ممثلو كنيسة روما فانضموا إلى جانب «سيريل»، وكانت النتيجة أن أدين نسطوريوس واعتبر خارجاً على تعايم الكنيسة، وبعد أن قضى خمس سنوات معتكفاً في ديره القديم قرب أنطاكية نفاه الأمبراطور ثيئودوسيوس الثاني سنة ٤٣٦ إلى أعالي مصر حيث توفي سنة ٤٥١ م.

السرياني فكانت تعج بطلبة العلم السريان، وقد ازدهرت بوجه خاص في عهد «إيباس» (٤٣٦ ـ ٤٥٧ م) أسقف هذه المدينة، غير أن الأحوال قد تغيّرت بعد وفاة «إيباس»، حيث خلفه «نونوس» أسقفاً للمدينة، كان هذا يمقت النسطورية متمسكاً بولائه للبيزنطية، فاضطر النساطرة تحت ضغط الأسقف الجديد للارتحال عن الرها. فاتخذوا من نصيبين مركزاً لنشاطهم الديني والثقافي فأسَّسوا هناك أكاديمية جديدة حلَّت محل الأكاديمية التي دمرها البيزنطيون في الرها، ولكن ما لبثوا حتى ارتحلوا عنها أيضاً خوفاً من بطش البيزنطيين وتوجهوا برياسة (بارصوما) زعيم الحركة النسطورية إلى مملكة فارس حيث وجدوا في الفرس (الساسانيين) أعداء الروم خير مَن يحميهم ويؤمِّن لهم السلامة وحرية العقيدة. وفعلاً أظهر الساسانيون استعدادهم لحمايتهم ومنحهم الحرية الدينية وحرية التبشير بمذهبهم النسطوري بين رعايا المملكة. فلاقوا ترحيباً من الملك فيروز الأول (٤٥٩ ـ ٤٨٤ م) الذي رأى فيهم خير أداة لمحاربة بيزنطة، فسمح لهم هذا الملك باقامة المعابد والمدارس وممارسة طقوسهم الدينية بحرية تامة وحسب طلب (بارصوما) فقد اعتبر الملك فيروز النسطورية ديناً لجميع مسيحيي الأمبراطورية الفارسية، «وأخذ مؤيدو (نسطور) تحت قيادة (بارصوما)، يجبرون الآثوريين بالنار والحديد على تقبل تعاليم (نسطور) وحسب قول جي. باسيت (J. Basset «Persia», P 471) فإنَّ سبعة آلاف من أنصار بيزنطة قد قتلوا أثناء معارك الاستعباد الديني التي قام بها بارصوما(١٧).

وفي عام ٤٩٦ للميلاد اجتمع في سلوقية العاصمة الفارسية المجمع الديني النسطوري، وأعلنت النسطورية ديناً رسمياً للمسيحيين وانتخب أول بطريرك نسطوري وهو باسم (باري). ومنذ ذلك الحين سُمِّيت الكنيسة النسطورية بكنيسة الشرق وسُمِّي بطريركها بطريركاً للكنيسة الشرقية. وفي ذلك الوقت نفسه أعطى الفرس استقلالاً محلياً داخلياً للنساطرة(١٨).

وهكذا فقد احتلت مدينة سلوقية في العراق مكانة الرها ونصيبين وصارت من أهم مراكز النسطورية الثقافية والتبشيرية في الشرق، فاستحكمت فيها النسطورية بمؤازرة السياسة الفارسية التي رمت إلى إقامة فواصل مذهبية بين

---

(١٧) تاريخ الآثوريين، تأليف ك. ماتييف ومار يوحنا ترجمة أسامة نعمان عن الروسية، ص ١١ ـ ١٢.

(١٨) المرجع السابق، ص ١٢.

نصارى فارس والروم[١٩]. ومن سلوقية نشر النساطرة مذهبهم في الأمبراطورية وفيما وراء حدودها فنقلوا تعاليمهم إلى تركستان والهند والصين. وازداد نفوذ كنيسة النساطرة في إيران حيث صارت تُعرف بكنيسة الشرق وهي تمارس طقوسها الدينية بالسريانية المعتمدة على منهج مدرسة الرها. وقد سمح الساسانيون للنساطرة أن ينشئوا مجالس طائفية لإدارة شؤونهم يديرها أساقفة منهم، فكانت لهم في القرن الخامس للميلاد سبع أسقفيات في الأقاليم الإيرانية. ومن سلوقية انتقل المذهب النسطوري إلى أهل الحيرة فصار أكثر نصارى الحيرة نساطرة وأسَّسوا أسقفية تابعة لكرسي جاثليق المداين مركز البطريركية. ومن أهل الحيرة انتقلت النسطورية إلى جزيرة العرب وكذلك إلى اليمن حيث كانت بين اليمن والحيرة علاقات تجارية وثيقة، وقد نُشر هذا المذهب بشكل واسع بعد دخول الفرس إلى اليمن (٥٧٠ ـ ٦٢٨ م) لما كان عليه الفرس من موقف عدائي تجاه كنيسة الروم[٢٠] وهكذا انتشرت الأرثوذكسية النسطورية من الصين حتى أورشليم ومن الهند والجزيرة العربية حتى مصر فأصبح لها خمس وعشرون أسقفية في القرن الحادي عشر الميلادي[٢١].

وقد قابل النساطرة فتوح العرب المسلمين بترحيب صميم حين أوقع العرب المسلمون هزيمة بجيش الفرس في القادسية في عام ٦٣٧ للميلاد وفي فارس في عام ٦٤٢ للميلاد. وقد ورد في الأخبار أن البطريرك النسطوري (ايشو باوي) قابل رسول النبي محمد (ﷺ) سنة ٦٢٨ م واستلم منه شهادة كانت لا تزال محفوظة في إحدى الكنائس النسطورية القديمة ـ مارزيا ـ حتى عام ١٩١٤ للميلاد[٢٢].

وعلى العموم كان المسيحيون النساطرة يتمتعون في الفترة بين دخول العرب المسلمين إلى العراق وإيران وحتى غزوات المغول في زمن جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد بحرية تامة فقد ازدهرت ثقافتهم وانتشرت مدارسهم في جميع أنحاء الشرقين الأدنى والأقصى وامتدت

(١٩) الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام» ٦: ٧٥.

(٢٠) المرجع السابق ٦: ٧٢ ـ ٨٠.

(٢١) إبراهيم خليل أحمد، «الاستشراق والتبشير وصلتهما بالأمبريالية العالمية» ١٩٧٣، ص ٢٣ ـ ٢٥.

(٢٢) «تاريخ الآثوريين» مرجع سابق، ص ١٣.

دعوتهم إلى النسطورية في الصين ومنغوليا ومنشوريا وكورية وتايوان وسيبريا والهند وسيلان ودول آسيا الوسطى[٢٣] فحملت ثقافتهم هذه طابعاً عالمياً وأثّرت إلى حد كبير على الفكر العربي في الدولة الإسلامية وبالنتيجة على الفكر الأوروبي عن طريق العرب[٢٤] ففي القرن الحادي عشر استطاعوا أن يكسبوا إلى دينهم إحدى القبائل المنغولية التي يبلغ عدد أفرادها مائتي الف نسمة، وبعد ذلك ترجموا الى المنغولية كتابي العهد الجديد والعهد العتيق كما حققوا نجاحاً كبيراً في الصين[٢٥].

وقد ساهم النساطرة في البحوث العلمية التي كان يقوم بها العلماء في بيت الحكمة الذي شيَّده الخليفة المأمون في القرن التاسع للميلاد، كما ساهموا في ترجمة المخطوطات الإغريقية والسريانية القديمة للفلاسفة والرياضيين والأطباء والفلكيين والكتَّاب إلى اللغة العربية، وكان الخلفاء يرسلون النساطرة والإيرانيين إلى الخارج لجمع المخطوطات ودراسة اللغات الأجنبية ثم عانت النسطورية والمسيحية بوجه عام الكثير من الاضطهاد والمطاردة في كل مكان في عهد المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر فتوجه بعضهم إلى الهند (سواحل مالابار) وتوجّه البعض الآخر إلى قبرص في حين أن أكبر المجاميع هربت مع البطريرك النسطوري إلى جبال كردستان حيث كان يقيم إخوانهم النساطرة منذ القديم. ومنذ ذلك الوقت أخذت النسطورية تتقلص تدريجياً بعد غزو المبشرين الكاثوليك إلى ديارهم ودعوتهم إلى نبذ النسطورية والتحول إلى الكاثوليكية، فاستطاع هؤلاء المبشرين أن يُخضعوا النساطرة لسيطرتهم في كل البلاد ما عدا النساطرة الذين اعتصموا في جبال كردستان مع بطريركهم وأصبح الصابئون إلى الكثلكة يُعرفون بالنساطرة الكلدان ولقب بطريركهم بلقب بطريرك بابل[٢٦].

٩ ـ اللغة السريانية لغة الكنيسة النسطورية:

تنتمي لغة النساطرة المعاصرة إلى أُسرة اللغة الآرامية (التي تدخل ضمن

---

(٢٣) J.W. Etheridge, «The Syrian Churches», p. 81.

(٢٤) Luke «Mosul and its Minorities», p. 7.

(٢٥) «تاريخ الآثوريين»، مرجع سابق، ص ١٥.

(٢٦) انظر: اوليري، «مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب»، ترجمة دكتور تمام حسان، القاهرة ١٩٥٧، ص ٦٩ ـ ١٠٧.

اللغات السامية) والتي كان النسطوريون يتكلمون بها منذ القديم، وهي المعروفة اليوم بالسريانية، وقد تمكّن البقايا من النساطرة الذين ثبتوا في أماكنهم في جبال كردستان من أن يحافظوا على هذه اللغة التي كان يتكلم بها المسيح قبل حوالى ألفي سنة، وكان لا يزال بقايا النساطرة في جبال حيكاري قبل أن يخرجهم الأتراك من مواطنهم الأصلية في تركيا وهم الذين سُمُّوا بالآثوريين مؤخراً[٢٧] يمارسون طقوسهم الكنيسية بهذه اللغة: فيقول المبشر الإنكليزي الدكتور ويكرام «إن صلوات خدمة القدّاس النسطورية هي أقدم ما يُطبق في البلاد المسيحية على الإطلاق فالمراسيم تقام تماماً كما كانت تُقام في السنة ٤٥٠ الميلادية والروايات التاريخية تمتد به إلى زمن أقدم من هذا»[٢٨] ويكمن السر في استطاعة هذه الفرقة بأن تبقى حتى هذا اليوم على عنصرها وثقافتها الدينية أنها وجدت في ظروف ملائمة في مناطق جبلية منيعة نائية منعزلة. هذه هي اللغة السريانية الكلاسيكية التي كانت مستعملة في الكتب الدينية والطقوس المسيحية النسطورية. وكان النساطرة يتكلمون فيما بينهم بلهجة سريانية قديمة يعتقد أنها اللهجة نفسها التي كان يتكلم بها المسيح واليهود في عهده في فلسطين، وقد صارت هذه اللهجة تُعرف بلغة الترجوم[٢٨أ] وهذه هي اللغة نفسها التي بقي يتكلم بها يهود كردستان الذين كان قد سباهم الآشوريون إلى منطقة آشور في القرن الثامن قبل الميلاد - وهي اللهجة ذاتها التي كان يتفاهم النسطوريون بها ما بينهم، ومع أنها لهجة ذات اصل واحد إلاّ أنها تختلف قليلاً بين لهجات نساطرة تركية ونساطرة إيران ونساطرة العراق. وذلك نتيجة إدخال بعض الكلمات الكردية إلى لهجة نساطرة تركيا والكردية والفارسية إلى لهجة نساطرة إيران والعربية إلى لهجة نساطرة ناحية الموصل وذلك بمرور الزمن بتأثير احتكاك النساطرة بالأكراد والإيرانيين والعرب غير أن هذه الفوارق لا تعيق التفاهم بينهم.

وكانت الكتب العتيقة تُقرأ بالرها بالعبرية والحديثة باليونانية فنقلهما الأساقفة إلى السريانية، هذا نص ما ورد في «أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل» لماري بن سليمان (ص ٣) في هذا الصدد: «ان كتب العتيقة (العهد القديم) كانت تُقرأ بالرها بالعبرية إلاّ أن بعض الأساقفة امتعض من ذلك

(٢٧) انظر ما تقدم في الفقرة ١٠ من الفصل الأول.

(٢٨) ويكرام «مهد البشرية»، ترجمة جرجس فتح الله، ص ٢٤٩.

(٢٨ أ) الدكتور علي عبد الواحد وافي، «اليهودي واليهود» ص ١٩.

ونقلها إلى السريانية ونقل الحديثة (العهد الجديد) من اليونانية إلى السريانية أمونيوس الغزي وقوم قالوا إن ططيانوس الذي عمل الإنجيل المسمَّى ذياطا سارون وصارت الكتب تُقرأ باليونانية وبالسريانية».

وقد استطاع البقايا من النساطرة في منطقة كردستان، وهم أحفاد اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى جبال كردستان في منطقة حدياب (آشور) من أن يحافظوا على هذه اللغة السريانية، اللغة التي كان يتكلم بها المسيح قبل حوالى ألفي سنة، وكان لا يزال بقايا النساطرة في جبال حيكاري قبل أن يخرجهم الأتراك من مواطنهم الجبلية في تركيا، وهم الذين صاروا يُعرفون مؤخّراً بالآثوريين[٢٩] يمارسون طقوسهم الكنيسية بهذه اللغة. ويكمن السر في استطاعة هذه الفرقة بأن تبقى حتى هذا اليوم على عنصرها وثقافتها الدينية أنها وجدت في ظروف ملائمة في مناطق جبلية منيعة نائية منعزلة.

وتفيد الأخبار أن البطريركية النسطورية استقرت في عهد البطاركة المتأخرين في قوجانس في منطقة حيكاري الواقعة في ولاية وان حيث يقيم النساطرة في جبال تركيا وذلك ليكون بعيداً عن مبشري رومه الذين كانوا يهدفون إلى تحويل جميع النساطرة إلى الكاثوليكية.

١٠ ـ بطريركية النساطرة ـ المار شمعونية:

بطريركية النساطرة وراثية في أسرة واحدة منذ سنة ١٤٥٠ م ويُطلق لقب «مار شمعون» على كل مَن يتولى البطريركية على النساطرة، ويشترط على مَن يكون بطريركاً أن لا يأكل اللحم مدة حياته حتى أمه وهي حاملة به، كما أنه محرّم على البطريرك النسطوري أن يتزوج. وهكذا ينتقل المنصب من عم إلى ابن الأخ ويبقى منحصراً في الأسرة، مع العلم أن القساوسة ورجال الدين الآخرين أحرار في الزواج كما يشاؤون. وكانت تسكن هذه الأسرة في القديم في بلدة القوش، ثم انتقلت إلى «عين كاوة» في أربيل وبقيت فيها طويلاً، ثم انتقلت الى «قوجانس» في حيكاري (منطقة جوله مرك).

والمار شمعون هو المرجع الديني الأعلى للمذهب النسطوري والزعيم الأكبر عند النساطرة وهو الذي يعين المطارنة والأساقفة ويسن القوانين والأنظمة

---

(٢٩) انظر ما تقدم في الفقرة ١٠ من الفصل الأول.

الدينية للكنيسة النسطورية في الشرقين الأدنى والأقصى. وكان يتبع المذهب النسطوري نحو واحد وعشرين كرسياً للمطارنة. وقد تعوَّد المار شمعون أن يسلك في أعماله سلوك زعيم قوم أكثر من سلوك بطريرك للكنيسة. فهو لا يفصل بين هذين المنصبين.

وكان المار شمعون في أثناء حوادث الحرب العالمية الأولى (مار بنيامين) وعلى إثر قتله على يد زعيم الأكراد «سمكو» سنة ١٩١٨ م حلَّ محله أخوه (مار بولص) وكان عليلاً فلم تدم بطريركيته طويلاً حيث توفي بالسل سنة ١٩٢٠ في مخيم بعقوبة، وقد خلفه المار شمعون ايشاي بن داود وهو ابن أخ بنيامين، وكان هذا البطريرك صبياً في الثانية عشرة من عمره فكانت وصية عليه عمته (سرما خانم) التي كانت تطمع بالعرش الآشوري، وقد أتمَّ ايشاي البطريرك الصبي دراسته في إنكلترا، ورجع إلى العراق وهو مشبع بفكرة جديدة لقَّنه إياها الإنكليز وهي أن النساطرة ينحدرون من الآشوريين ومن واجبه أن يجمع طائفته ويعيد مجد ذلك الشعب الآشوري العظيم أجداد النساطرة من جديد. وكان نتيجة لموقفه السلبي تجاه إسكان الآثوريين في العراق الأثر في إشعال نار ثورة الآثوريين على الجيش العراقي التي كان مصيرها الفشل والقضاء عليها. فنُفي البطريرك إثر ذلك من العراق وارتحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وتدل آخر الأخبار أن البطريرك ضرب بالتعاليم الكهنوتية النسطورية التي تحرم عليه الزواج عرض الحائط وتزوج رغم ذلك وانتزع صفة المار شمعون عنه. فكان عمله هذا نذيراً بنهاية المسرحية التي شهدت تمزيق شمل النساطرة إذ قتل البطريرك في أمريكا على يد أحد الآثوريين.

١١ ـ مجمع خلكيدونية لسنة ٤٥١ م:

ونظراً لتمركز المسيحية في الشرق وانتشار مدارسها وفروعها فضلاً عن اتخاذها ديانة رسمية للأمبراطورية البيزنطية فقد تمتعت الكنيسة الشرقية البيزنطية بنفوذ كبير وانتشار واسع، في حين أن الكنيسة الغربية كانت فعالياتها على نطاق ضيق. ويتضح لنا ذلك إذا رجعنا إلى أول اجتماع للمجمع الديني المنعقد في نيقية سنة ٣٢٥ م، إذ نجد أن مجموع عدد المطارنة الذين حضروا هذا الاجتماع كان ٢٢٠ مطراناً لم يكن بينهم سوى خمسة مطارنة من الأقطار الغربية[٣٠].

---

(٣٠) دائرة المعارف البريطانية، ١٩٦٥، ٦: ٦٣٣.

لذلك شهدت الكنيسة الشرقية البيزنطية عدة انقسامات داخلية في حين أن الكنيسة الغربية حافظت على وحدتها ومركزيتها نسبياً، فقد كان لبطريق القسطنطينية سلطة واسعة، وبصفته رئيساً للكنيسة البيزنطية له الحق بأن يتوج الأمبراطور على كرسي الحكم، لكن كان للأمبراطور في الوقت نفسه الحق أن يختار البطريق من بين ثلاثة أسماء يرشحهم المجمع الديني وبإمكانه إن شاء أن يرشح اسماً آخر من غير هؤلاء الثلاثة.

وقد أثار انتشار النسطورية القلق على وحدة الكنيسة البيزنطية وتأثير ذلك على الوضع السياسي في الأمبراطورية، مما حمل الأمبراطور على محاولة إيجاد حل لهذه المشكلة المعقدة، فبعد وفاة الأمبراطور ثيئودوسيوس الثاني سنة ٤٥٠ م خلفته أخته وزوجها مارقيان (٤٥٠ ـ ٤٥٧ م) في الحكم، وكان كلاهما يميل إلى الرأي القائل بأنَّ للمسيح طبيعتين (أقنومين)[٣١]، فدعا مارقيان المجمع الديني للاجتماع وعقد هذا الاجتماع في خلكيدونية[٣٢] سنة ٤٥١ م، فكان أكبر مجمع شهدته الكنيسة المسيحية، إذ كان يضم ٥٢٠ مطراناً أُقرَّ فيه مبدأ الطبيعتين في شخص المسيح لكن من غير انفصال أو تقسيم كما دعا إليهما نسطوريوس، فالطبيعتان موحدة في شخص واحد وقد أُقرَّ ذلك بدافع الرغبة في حل لنزاع بين الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية وبين الكنيسة النسطورية كحل وسط، ومع ذلك رفضته الجماعة القائلة بالطبيعة الواحدة في المسيح (جماعة المنوفيستينيين) مما أدى إلى انقسام الكنيسة الشرقية إلى شُعَب ثلاث الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية وكنيسة النساطرة، ثم الجماعة التي رفضت القرار الذي اتخذه المجمع الخلكيدوني بشأن العقيدة وقد عرفوا باليعاقبة. ومن غريب الصدف أن هذا الاجتماع الذي أُقرَّ فيه مبدأ نسطوريوس من حيث الأساس عقد في نفس السنة التي توفي فيها نسطوريوس.

(٣١) انظر دائرة المعارف البريطانية ١٩٦٥، ٦: ٦٣٣ ـ ٦٣٧.

(٣٢) خلكيدونية Chalcedon ميناء قديم من مدن بيثانيا يقع مقابل مدينة استامبول (القسطنطينية) خربها متريدات السادس ملك الفرثيين ـ (٦٣ ق.م.) ثم استعادها الرومان، وقد احتلها كسرى الثاني ملك الفرس في سنة ٦١٦ م. اشتهرت في عقد اجتماع المجمع الديني لسنة ٤٥١ فسُمِّي باسمها.

١٢ ـ ظهور اليعقوبية وانتشارها في الشرق:

وعلى إثر إقرار المجمع الديني المنعقد في خلكيدونية مبدأ الطبيعتين في شخص المسيح من غير انفصال ظهرت جماعة من المسيحيين في سورية وما وراءها سُمِّيت بالسريان الأرثوذكس اعتبرت موقف كنيسة الروم الأرثوذكسية في أنطاكية المنسجم مع قرار المجمع الخلكيدوني موقفاً مخالفاً للتعاليم المسيحية الأساسية والتي لا تعترف بغير الطبيعة الواحدة في شخص المسيح. وهي بذلك تنضم إلى جماعة المنوفيستينيين في مبادئها. وصارت هذه الجماعة تُسمَّى أتباع كنيسة أنطاكية بالملكيين (Melkites) أي أعوان الأمبراطور، وشكّلت بطريركية خاصة بها. وصار هؤلاء يُعرفون بالسريان الأرثوذكس أو اليعاقبة نسبة إلى منظمها يعقوب البرادعي مطران الرها (٥٠٠ ـ ٥٧٨ م). وقد ذكر المسعودي اليعاقبة فقال «إن اليعقوبية والجورقان هم نصارى وديارهم مما يلي الموصل وجبل الجودي[٣٣] وكان بعض اليعاقبة فعلاً يسكن منطقة زاخو ودهوك وعقرة. وكان لليعاقبة دير يسمَّى دير «القيارة» وصفه ياقوت الحموي قال: «دير القيارة لليعقوبية على أربعة فراسخ من الموصل في الجانب الغربي من أعمال الحديثة مشرف على دجلة وتحته عين القار وهي عين تفور بماء حار وتصب في دجلة.. ويقصد هذا الموضع للتنزه والشرب ويستحمون من ذلك الماء الذي يخرج من القار وله قائم» كما كان لليعاقبة بيعة وصفها ياقوت أيضاً قال: «ويجاور بيعة دير الروم في الجانب الشرقي من بغداد بيعة لليعقوبية مفردة لهم حسنة المنظر عجيبة البناء مقصودة لما فيها من عجائب الصور وحسن العمل»[٣٤] وكان لليعاقبة دير آخر بتكريت سُمِّي «دير جلتاني» وكانت في أيامه أسقفيتان على العرب: أسقفية عُرفت بأسقفية العرب، وأسقفية التغلبيين أو «السن» وكرسيها في «عاقولا» هي الكوفة، أمَّا أسقفية العرب فكانت في الحيرة[٣٥].

وقد اتخذ بطريرق اليعاقبة مقره في أنطاكية أولاً، ثم انتقل إلى دير الزعفران قريباً من ماردين حيث كان له أتباع في القرى الجبلية من ماردين وفي جوار الموصل وفي مقاطعات حلب وحمص، إلاَّ أنه ظلَّ يُلقَّب ببطريرك أنطاكية وسائر المشرق، ثم بعد الحرب العالمية الأولى انتقل أكثر أتباع كنيسته من تركيا

---

(٣٣) «مروج الذهب» الجزء الثاني طبعة بيروت، ١٩٦٥ ص ١٠١.

(٣٤) «معجم البلدان»، ح٢، ٦٦٢، ٦٨٩.

(٣٥) الدكتور جواد علي «تأريخ العرب قبل الإسلام»، ٦: ٨٢.

فاتخذ مقره في حمص سنة ١٩٢١، ثم انتقل إلى دمشق سنة ١٩٥٩ حيث لا يزال مقيماً فيها.

وقد نشر المذهب اليعقوبي في بلاد الشام وفي البادية وبين الأقباط والأرمن والأحباش وقد نشره الأحباش في اليمن إثر الاحتلال الحبشي لليمن (٥٢٥ ـ ٥٧١ م)، كما دخل أكثر الغساسنة في هذا المذهب فتعصبوا له وظلُّوا متمسكين به مدافعين عنه إلى ظهور الإسلام. وقد اصطدم اليعاقبة بالكنيسة الرسمية لأمبراطورية الروم لمعارضتهم قرارات المجمع الخلكيدوني كما اصطدموا بالنساطرة لمخالفاتهم التعاليم النسطورية القائلة بأنَّ للمسيح طبيعتين وأقنومين فجرت معارك دموية بينهما. وفي تواريخ اليعاقبة روايات عن اعتناق بعض الملوك الغساسنة لهذا المذهب وتعلقهم به ودفاعهم عنه كالحارث بن جبلة «٥٢٩ ـ ٥٦٩ م) وابنه المنذر (٥٦٩ ـ ٥٨٢ م)، وقد روي أن الأخير عنَّف البطريرك «دوميان» في أثناء زيارته للقسطنطينية لتهجمه على اليعاقبة وطلب إليه الكف عن ذلك والاتفاق مع بطريرك اليعاقبة على التآخي والتحابب تجنباً للفرقة. ومما ذكر أيضاً أن المنذر كتب إلى القيصر لتهجمه على اليعاقبة وطلب إليه الكف عن ذلك والاتفاق مع بطريرك اليعاقبة «طيباريوس الثاني» (٥٧٨ ـ ٥٨٢ م) للتدخل في الأمر وحمل البطريرك والأساقفة على إيقاف حملاتهم على اليعقابة والسعي في إطلاق الحرية لجميع النصارى كل على مذهبه، وقد رُوي أنه جرت مناظرة بين الحارث بن جبلة وبطريرك الملكيين «افرام» (٥٢٦ ـ ٥٤٥ م) فأفحم فيها الحارث خصمه على ما يدّعيه اليعاقبة بقوة حجته. وكان لليعاقبة مشهد القديس «سرجيوس» في الرصافة يحجون إليه للتبرّك به وكان أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه وتقديسه(٣٦).

وعلى الرغم من أن النساطرة واليعاقبة قد استعملا في كنيستيهما لغة شرقية هي اللغة السريانية إلاَّ أنهما لم يهجرا اللاتينية واليونانية اللتين كانتا اللغتين الرسميتين للكنيسة الغربية والكنيسة الأرثوذكسية الإغريقية الأصلية على التوالي فقد استمر رجالهما يدرسون العلوم المختلفة كالفلسفة والمنطق وغيرهما من العلوم باللغتين المذكورتين. ولتعليم أبنائهما تلك العلوم قاموا بترجمتها إلى لغتهما السريانية فساعدوا على تحقيق الاتصال الثقافي بين الشرق والغرب، ثم

(٣٦) المرجع السابق، ج٦ ص ٨١ ـ ٨٥.

نقلوا كتبهم من السريانية إلى العربية فأتموا بذلك مشروعاً إنسانياً عظيماً تمَّ نموه وازدهاره في الإسلام(٣٧).

١٣ ـ الانقسامات في الكنيسة المسيحية:

يتضح مما تقدّم أن الكنيسة المسيحية انقسمت إلى عدة كنائس، ففي الشرق أي في آسيا وافريقيا، كان أول انقسام في الكنيسة المسيحية. حيث ظهرت ثلاث طوائف لكل منها كنيستها الخاصة بها، وهي: أولاً الكنيسة الأرثوذكسية النسطورية(٣٨) وأتباعها هم الذين يقرُّون مبدأ الطبيعتين المنفصلتين في شخص المسيح، وقد انتشر هؤلاء في الأمبراطورية الساسانية في العراق وسوريا وفي الجزيرة العربية وفي إيران وقد امتدت تعاليمهم إلى تركستان والهند والصين. وهذه هي الكنيسة التي صارت تُعرف بكنيسة الشرق وقد نقلت معها اللغة السريانية التي كانت تُمارس طقوسها الدينية بها. ثانياً كنيسة أنطاكية للروم الأرثوذكس، وهذه تتبع الكنيسة الرسمية لأمبراطورية الروم، وكانت تُمارس طقوسها الدينية باللغة اليونانية والسريانية ثم أخذت اللغة العربية تحل محلها منذ القرن التاسع الميلادي حيث صارت تتسم بالطابع العربي خاصة بعد تقسيم الأمبراطورية الرومانية ونزوح اليونان من آسيا الصغرى. وتستعمل اللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة الأمريكية. وتشمل سلطة بطريركية أنطاكية للروم الارثوذكس المطارنة التابعين لها في سورية (حمص، حماة، اللاذقية، السويداء) وفي لبنان وبغداد ونيويورك. وقد انتقل مقر البطريركية من أنطاكية إلى دمشق وذلك منذ القرن الرابع عشر للميلاد ولا تزال حتى هذا اليوم فيها. كانت هذه البطريركية مؤيِّدة لتعاليم نسطوريوس القائلة بالطبيعتين في شخص المسيح في الأصل كما سبق شرح ذلك في اجتماع المجمع الذي عُقد في أفيسس سنة ٤٣١ م. وأيَّدت بعد ذلك ما أقرّه المجمع الخلكيدوني في سنة ٤٥١ م والذي يقرّ فكرة الطبيعتين في شخص المسيح لكن من غير انفصال، وهو المبدأ الذي شجبه اليعاقبة وأسَّسوا بطريركية خاصة بهم. ثالثاً، الكنيسة الأرثوذكسية اليعقوبية أو السريان الأرثوذكس وهذه تضم جماعة المنوفيسيتيين الذين لا يقرُّون بغير طبيعة

(٣٧) المرجع السابق، ص ٨٥.

(٣٨) إن لفظة الأرثوذكسية مأخوذة من اليونانية بمعنى الرأي أو المذهب الحق أو المستقيم لتمييزها عن الكاثوليكية وهي لفظة يونانية أيضاً بمعنى الديانة العامة العالمية.

واحدة في شخص المسيح، وهم يمارسون طقوسهم الدينية باللغة السريانية نفسها التي يستعملها النساطرة في طقوسهم وقد ظلَّ بطريركهم يلقب بـ «بطريرك أنطاكية وسائر المشرق» وقد انتشر هذا المذهب بين الأقباط والأحباش والأرمن. وأخيراً، أخذت الأيام تمهد للإنقسام الرئيسي بين الشرق والغرب على الصعيدين المذهبي والسياسي نتيجة للاحتكاك بين الكنيسة الغربية في روما والكنيسة الشرقية الواسعة الانتشار بفروعها المتشعبة، وخاصة بعد تقسيم الأمبراطورية الرومانية سنة ٣٦٤ م إلى غربية وشرقية، حتى شهد القرن الحادي عشر (١٠٥٤ م) الانقسام الكبير بين الشرق والغرب إلى انقسام خطير بين الكنيستين، كنيسة كاثوليكية غربية استعملت اللغة اللاتينية لغة رسمية لها، يرأسها البابا في روما ويعتقد أتباعها بعظمته وعظمة كنيسته وكنيسة شرقية أرثوذكسية تفرَّعت منها الانقسامات الرئيسية في الديانة المسيحية.

وبعد احتلال الترك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ م أصبحت الطوائف ذات المذاهب المختلفة في الكنيسة الشرقية الأورثوذكسية طوائف مستقلة في إدارة شؤونها الدينية باسم «ملة»، فالمسيحيون الأورثوذكس في آسيا الصغرى وفي اليونان وأوروبا الشرقية عدا روسيا أصبحوا هم والنساطرة والمنوفيستيين وغيرهم من الطوائف الدينية رعايا الدولة العثمانية معترف بكيانهم الديني. أمَّا ما يختص بروسيا فقد دخلت المسيحية إليها عن طريق الكنيسة البيزنطية عندما اعتنقها «فلاديمير القديس» سنة ١٠٣٧ م وظلَّت تخضع لبطريركية القسطنطينية حوالى قرنين حيث كان كل الأساقفة والمطارنة من الإغريق ثم غلب بعد ذلك العنصر الروسي (السلاف) في الكنيسة. وبعد أن تبلورت الوحدة الروسية ادَّعى إيفان الثالث (١٤٦٢ ـ ١٥٠٥ م) على أثر استيلاء الترك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م أنه الممثل الشرعي الوحيد للكنيسة الأورثوذكسية في العالم وصارت تسمَّى بطريركية الأورثوذكس الروس باسم بطريركية موسكو وكل روسيا وصارت كنيستها تُعرف بالكنيسة السلافية وقد أُلغيت البطريركية في عهد بيتر الأول في سنة ١٧٢١م ثمَّ أُعيدت ونُصِّب تيخون (١٨٦٥ ـ ١٩٢٥ م) بطريركاً لموسكو وكل روسيا في ٤ كانون الأول ١٩١٧ م. ثم أُلغيت البطريركية في ٥ شباط ١٩١٨ بعد الثورة البلشفية وصُودرت كل ممتلكاتها.

١٤ ـ انقسامات داخلية في الكنيستين النسطورية واليعقوبية:

وما أن حلَّ القرن السادس عشر للميلاد حتى حدث انقسام جديد في داخل

النسطورية، فمنذ سنة ١٥٥١ اعتنقت جماعة من أتباع الكنيسة النسطورية المذهب الكاثوليكي التابع لروما، فصار هؤلاء يتّسمون بالكلدان المتحدين (Chaldean Uniates) وأطلقوا على كنيستهم اسم الكنيسة المتحدة (Uniate Church) أمّا الذين بقوا على النسطورية فقد حافظوا على تسميتهم بالنساطرة. هذا مع العلم أن هؤلاء الكلدان المتحدين مع أنهم ارتبطوا بالولاء إلى روما إلاّ أنهم احتفظوا بلغتهم السريانية وطقوسهم الدينية وأنظمتهم الكنيسية. وقد تأسَّست إثر ذلك بطريركية كلدانية فكان مقرّها في دير الربان هرمزد في القوش ثم انتقلت إلى مدينة الموصل. وفي سنة ١٨٤٥ تمَّ اعتراف السلطات العثمانية بطائفة الكلدان كملة مستقلة في شؤونها الدينية.

وقد حدث الانقسام نفسه في كنيسة اليعاقبة حيث تحوَّلت جماعة من اليعاقبة عن مذهبهم إلى المذهب الكاثوليكي التابع لروما فصار هؤلاء يتّسمون بالسريان الكاثوليك أو اليعاقبة المتّحدين في حين أن الذين بقوا على مذهبهم صاروا يُعرفون بالسريان الأرثوذكس أو اليعاقبة وقد تمَّ اعتراف السلطات العثمانية في سنة ١٨٣٩ بالكنيسة السريانية الكاثوليكية بعد انفصالها عن كنيسة اليعاقبة واعتبرت طائفة مستقلة «ملة» أيضاً وكان كرسي بطريرق هذه الكنيسة في ماردين ثم انتقل في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد إلى الشام[٣٩] هذا مع العلم أن هؤلاء الكلدان والسريان الكاثوليك مع أنهم ارتبطوا بالولاء إلى البابا في روما إلاّ انهم احتفظوا بلغتهم السريانية في ممارسة الطقوس الدينية والأنظمة الكنيسية.

١٥ ـ الكنيسة المسيحية الشرقية تؤمن الحفاظ على ثلاث لغات قديمة:

ويرجع الفضل إلى الكنيسة المسيحية الشرقية في الحفاظ على ثلاث لغات قديمة، عدا اللاتينية واليونانية، هي السريانية في الشرق والقبطية في مصر والجعيزية في الحبشة.

والسريانية أقدم لغات الكنيسة المسيحية الشرقية، فكلمة سريانية استعملت أول مرة للدلالة على اللهجات الآرامية المختلفة وذلك عندما أطلق لقب السريان على الأقوام الناطقة باللغة الآرامية التي اعتنقت الديانة المسيحية وظلَّ لقب

(٣٩) انظر ما تقدم عن اليعقوبية في الفقرة ١٢ من هذا الفصل.

الآراميين يُطلق على الفئات التي بقيت على الوثنية. وكانت الآرامية لغة المسيح والحواريين وبها كتب بعض العهد القديم وهو يشتمل على كتب عزرا ودانيال وأرميا وقليل من سفر التكوين، وبها كُتب الإنجيل على ما يرجح وإن الكتابات الطقسية الدينية لمختلف الكنائس الشرقية دوِّنت بلهجات مشتقة من الآرامية وبأقلام مأخوذة من الأبجدية الآرامية(٤٠). أمَّا اللغة الآرامية الكلاسيكية فقد اقتصرت على لغة طقسية لخمس طوائف شرقية.

وقد تكاملت اللغة الآرامية القديمة في شمالي سورية في الفترة بين القرنين الحادي عشر والثامن قبل الميلاد، وهي الفترة التي ازدهرت فيها الدول الآرامية منتهزة فترة ضعف الأمبراطورية الآشورية لمواصلة نموها وانتشارها. إلاَّ أن هذا الازدهار السياسي الذي تمتعت به الدول الآرامية في هذه الفترة لم يدم طويلاً إذ سرعان ما استعاد الآشوريون قوتهم وراحوا يهدمون معاقل الآراميين الواحد بعد الآخر ولم ينته القرن الثامن قبل الميلاد حتى قُضي على استقلال الدويلات الآرامية. ولكن التدهور السياسي لم يقض على الثقافة الآرامية بل على عكس ما كان يُتوقع فقد أخذ المستعمرون أنفسهم باللغة الآرامية التي أخذت تنتشر انتشاراً سريعاً حتى تبنتها أقوام كثيرة وصارت تحتل المكانة الأولى بين سائر اللغات في العلاقات الدولية، وذلك لسهولة أبجديتها. واستمرت الآرامية تزدهر في العهد البابلي الحديث (٦١٦ ـ ٥٣٩ ق.م.). وعلى أثر الغزو الفارسي على بلاد الشرق (٥٣٩ ـ ٣٣١ ق.م.) انتشرت اللغة الآرامية بصورة واسعة فامتدت من فارس إلى البحر المتوسط حتى أصبحت اللغة الرسمية في كثير من البلدان بين الفرات والحدود المصرية، ثم امتدت شطر نواحي آسيا الصغرى وشمالي الجزيرة العربية حتى احتلت في أوج ازدهارها وانتشارها معظم أجزاء الشرق الأوسط بل تعدته إلى المشرق الأقصى وبلغت بلاد الهند والصين. ولما كانت العبرية مشتقة من الآرامية فقد تغلبت الأخيرة على العبرية وحلَّت محلها في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد.

والدليل على انتشار اللغة الآرامية في جميع الشرق الأدنى أن تسمية «آراميين» صارت تشمل جميع القبائل الساكنة قديماً في البلاد الفسيحة الواسعة والمحدودة ببلاد الفرس شرقاً والبحر المتوسط غرباً وبلاد الأرمن وبلاد اليونان في آسيا الصغرى شمالاً وحدود جزيرة العرب جنوباً والتي كانت تعرف قاطبة

---

(٤٠) Diringer, «The Alphabet», p. 235.

ببني آرام والآراميين مع أن بعض هذه القبائل كانت تُسمَّى بأسماء خصوصية كتسمية أهل بابل وما يجاورها من قبائل الكلدانيين وسكان مملكة آشور بالآشوريين وتسمية أهل الشام بالآدوميين، ولكن تسمية الآراميين كانت تشملهم جميعاً، وكانت كل هذه البلاد تتكلم بالآرامية، مثلما أن تسمية طي مثلاً وقريش وحمير وكنانة لا تخرج هذه القبائل من كونهم عرباً[٤١].

وقد ظهرت مجموعتان كبريان من اللهجات الآرامية انبثقتا من اللغة الآرامية القديمة، المجموعة الغربية وكانت تشمل فروعاً عديدة هي النبطية والتدمرية والآرامية اليهودية الفلسطينية التي كتب بها تلمود أورشليم والسامرية والآرامية المسيحية، والمجموعة الشرقية وهي تشمل اللغة السريانية الرهاوية وهي المعروفة بالكلدانية ولغة التلمود البابلي واللهجة الماندية ولهجة الحضر، وقد انقرضت هذه اللهجات في حين كتب للغة الرهاوية البقاء.

وتُعرف اليوم اللهجة الآرامية الغربية الحديثة بـ «السورت» وما يزال بعض المسيحيين في القرى الواقعة شمال شرقي دمشق يتكلمون بها وقد خالطتها اللغة العامية الدارجة فتأثّرت إلى حد بعيد في ألفاظها باللغات التي سادت تلك المنطقة ولم تزل هذه الآرامية مستعملة في أربع قرى واقعة في الشمال الشرقي من دمشق وهي: «معلولا» و«نجعة» و«جب عبدين» و«صيدنايا» ومع أن هذه اللهجة وليدة الاحتكاك بين اللهجتين الغربية والشرقية فإنّها تعتبر من اللهجات الشرقية إلاَّ أنها تُعد بقية حية للآرامية. وإلى وقت قريب كان اليهود القاطنون في شمالي العراق يتكلمون بالآرامية[٤٢].

أمَّا اللغة القبطية فهي إحدى اللغات الحامية كانت في سالف الأعصار لساناً يتداوله جمهور الشعب المصري، فكانت اللغة المصرية القديمة لسكان منف وثيبة وبقية أنحاء مصر. لذلك فهي مشتقة من اللغة المصرية القديمة واسم القبط كلمة مصرية يُراد بها المصري، ثم طرأ على هذه اللغة تطورات لغوية فخلفتها اللغة القبطية كفرع نما من دوحتها. وظلَّت هذه اللغة القبطية متداولة بين جمهور الشعب حتى شاعت في مصر اللغة اليونانية وقتاً طويلاً فأصبحت هي لغة الطقوس الدينية المسيحية، ثم عقبتها القبطية حتى جاءت الفتوحات العربية

---

(٤١) القس يعقوب اوجين حنا الكلداني، «دليل الراغبين في لغة الآراميين» الموصل، ١٩٠٠، ص ٧.

(٤٢) انظر ما تقدم في الفقرة ٩ من هذا الفصل والفقرة ١١ من الفصل الأول.

الإسلامية، فقامت اللغة العربية مقام اللغة القبطية في أكثر الصلوات التي نُقلت إلى العربية ليتمكن السامعون من فهم معانيها إلاَّ بعض القطع الدينية بقيت في اللغة القبطية الأصلية ينشدها الكهنة ولا يدرك معانيها إلاَّ قليلون، كما أن هناك بعض التراتيل لا تزال ترنم باللغة اليونانية. وتعتبر آثار الآداب القبطية في الكنائس القبطية العربية آداباً دينية أكثرها مترجم من اليونانية(٤٣).

وأمَّا لغة الجعيز فهي أقدم لغة سامية انتقلت إلى الحبشة إثر زحْف القبائل العربية من جنوبي شبه جزيرة العرب إلى الحبشة على مدى أجيال متباعدة في موجات متعاقبة ومعها دخلت لغاتها ولهجاتها كان أقدمها شيوعاً لغة الجعيز (اللغة الأم). وتسمية الجعيز موروثة من قبيلة يمانية يُدعى أفرادها «الأجاعز»، ولا يزال أثر الخط السبئي والحميري القديم المعروف بالخط المسند ظاهراً في كتابة لغة الجعيز، وهو من أقدم الآثار التي خلفتها حضارة الجنوب العربي في المجتمع الحامي في الحبشة. ثم اندثرت هذه اللغة تدريجياً بسبب تغلب اللهجات الكوشية المحلية عليها فانحصر نطاق استعمالها بفضل حروفها الأبجدية في كتابة الأدب والوثائق والطقوس الدينية فقط، وحتى يومنا هذا تُجرى الطقوس الدينية في الكنيسة الحبشية بلغة الجعيز كما وتُكتب بها الطقوس الدينية ليهود الحبشة (الفلاشا)، فللكنيسة الحبشية المسيحية وليهود الفلاشا إذن يعود الفضل في بقاء هذه اللغة على قيد الحياة(٤٤).

ويرى الباحثون أنه لولا الحضارة السامية التي نقلها وجاء بها المهاجرون عبر البحر الأحمر وغرسوا بذورها في المجتمع الحامي البدائي وأهمها اللغات المكتوبة التي ساعدت في تدوين منجزات الإنسان، لظلّت أثيوبيا كبقية الأقطار في افريقية تنطق بلغات عديدة ولكنها غير قابلة للتدوين وعلى هذا كان لإدخال هذه اللغة المكتوبة بالحروف الأبجدية أعمق الأثر في نشوء ورسوخ حضارة جديدة في هذه الربوع.

وتشير التقاليد الدينية إلى أن الكتب المسيحية الدينية تُرجمت إلى لغة الجعيز في حوالى نهاية القرن الخامس للميلاد على يد تسعة رهبان جاؤوا من

---

(٤٣) انظر مقال الأب الكسيس مالون اليسوعي في «أصل اللغة القبطية وتاريخها» المنشور في مجلة المشرق (١٩٠٠)، ص ٨٩١ ـ ٨٩٩. وانظر أيضاً: Ency, Brit., 1965, 6: 477-479, «Coptic Language, Coptic Church».

(٤٤) ممتاز العارف «الأحباش بين مأرب وأكسوم» بيروت ١٩٧٥، ص ٩ ـ ١٥.

سورية وعلى إثر ذلك نشأت الكنيسة المسيحية الحبشية على أسس التعاليم المنوفيسيتية المرتبطة مع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في الاسكندرية وبعد الفتوح الإسلامية انقطعت صلات الكنيسة الحبشية عن العالم المسيحي ما عدا الكنيسة القبطية بمصر.

١٦ ـ التبشير بين النساطرة:

لقد بدأ التبشير بالكاثوليكية في المشرق منذ أيام الحرب الصليبية فكان نتيجة لنشاط البابوية المبذول في هذا السبيل أن نجحت أيام سبر يسوع الرابع ابن المسيحي صاحب كرسي المداين وهو بغدادي وطناً (١٢٢٦ ـ ١٢٥٦ م) بتوحيد كرسيه مع الكنيسة الكاثوليكية برياسة البابا في روما[٤٥].

«وقد شهد القرنان السادس عشر والثامن عشر صراعاً مريراً بين النساطرة والكاثوليك الذين كانوا يريدون إخضاع جميع النساطرة للعرش البابوي، وقد قام المبشرون الكاثوليك بشتى الوسائل لتحقيق غاياتهم فكانوا يشترون ذمم البيكات الأتراك والشيوخ الأكراد لكي يقوم هؤلاء بتحطيم ومحو الآثار النسطورية من معابد وكنائس في مناطقهم، وكان همهم ينصب على تحطيم الصلات التي تربط بين التاريخ القديم والحديث للنساطرة راغبين جعل بداية تاريخهم مرتبطاً بتاريخ انضمامهم تحت لواء البابوية... وقد اهتم هؤلاء المبشرون كثيراً بحرق وإتلاف الكتب والمخطوطات التي تخص تاريخ النساطرة ودينهم القديمين. وحسب ما يقول نساطرة الموصل فإنّ مكتبة هذه المدينة التي تحتوي على آلاف الكتب القيّمة قد رُميت في النهر بأمر المبشرين الكاثوليك وقد ساعدهم في ذلك الشيوخ الأكراد والولاة الأتراك... وقد انتهت مساعي كنيسة روما في النهاية بالنجاح، وقد استطاعت أن تُخضع لسيطرتها جميع النساطرة في وديان شمالي العراق في عام ١٧٧٨ م وأصبح اسم هؤلاء النساطرة الكلدان ولُقِّب بطريركهم بلقب بطريرك بابل»[٤٦].

وتدل الأخبار أن بطاركة النساطرة لم يستطيعوا السكنى في بغداد والموصل بعد سنة ١٥٥٥ فقصدوا مدينة سعرت وقطنوا فيها خوفاً من بطش أعدائهم ومنها

---

(٤٥) الدكتور جعفر حسن خصباك، «العراق في عهد المغول الإيلخانيين»، بغداد، ١٩٦٨ ص ١٨٦.

(٤٦) ماتفييف ومار يوحنا، المرجع المار الذكر، ص ١٧ ـ ٢٠.

انتقلت البطريركية النسطورية إلى قوجانس في منطقة حيكاري حيث كان يقيم النساطرة في جبال حيكاري.

وهكذا فقد ازداد عدد الطائفة الكلدانية الكاثوليكية في المشرق واتسع نفوذ كنيستها حتى أصبح مجموع أفرادها في محافظات الموصل وبغداد والبصرة يشتمل على ١٨ قرية مجموع سكانها ٦٨٥٠٠ نسمة لهم كنائس وديارات كثيرة منتشرة في المدن العراقية، ومن أهم كنائسهم في العراق كنيسة الكلدان في بغداد وكنيسة الكلدان في الموصل وكنيسة تلكيف ودياراتهم لا يزال أكثرها عامراً بالرهبان وزاهراً بالمدارس الدينية، ومن أشهر ديارات الكلدان التاريخية دير مار ميخائيل في الموصل ودير الربان هرمزد في لحف جبل القوش ودير مار ورها (بطنايا). ومن الأديرة الحديثة دير السيدة في القوش يقع على هضبة تبعد عن القوش بمسافة ميل واحد[٤٧].

وقد أثار نشاط الكنيسة الكاثوليكية انتباه الدول الكبرى إلى النساطرة المسيحيين الصامدين في الجبال وقد ظلُّوا محافظين على تقاليدهم وطقوس مذهبهم النسطوري ولغتهم السريانية. فأخذت هذه الدول تتزاحم ما بينها كل منها يسعى لجر النساطرة إلى جانبه وفرض حمايته عليهم عن طريق إرسالياتهم التبشيرية بغية استغلالهم سياسياً والتمهيد للتدخل في شؤون الدولة العثمانية المائلة للاحتضار وكسب النفوذ فيها بحجة حماية الأقلية المسيحية. فكان صراع عنيف بين الإرساليات المختلفة المذاهب التي تدعمها دولهم سياسياً على حساب النساطرة الذين باتوا حائرين بأمرهم إزاء الأطماع الاستعمارية والترغيبات المنهالة عليهم من كل جانب حتى صاروا مقتنعين بالاستناد على حماية أجنبية. كل ذلك أثار الشكوك في نفوس العثمانيين حكّام البلاد وفي نفوس الأكراد المحيطين بهم فأصبح النساطرة موضع ريبة ينظر إليهم كما ينظر إلى الخونة. وفيما يلي عرض موجز للأعمال التي قامت بها الإرساليات التبشيرية مع تقديم صورة لبعض الجوانب من الصراع بين هذه الإرساليات وبين الدول التي كانت تسندها لتحقيق أطماعها السياسية الاستعمارية.

١٧ ـ الروس والنساطرة:

يرجع تاريخ العلاقات الروسية النسطورية إلى أوائل القرن التاسع عشر حين

(٤٧) «الدليل العراقي لسنة ١٩٦٠»، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

نشبت الحرب الروسية الإيرانية (١٨٢٦ ـ ١٨٢٨ م) فقدَّم النساطرة أثناء هذه الحرب مساعدة كبيرة للجيوش الروسية كمرافقين وأدلاء. ثم توثقت الصلات بين النساطرة والحكومة الروسية القيصرية إثر ذلك فسمحت الأخيرة لمائة مجموعة من العوائل النسطورية من أورمية أن ينزحوا إلى جبال ما وراء القفقاس حيث تمَّ إسكان هؤلاء النساطرة في المنطقة القريبة من (يريڤان) ثم انتقلوا بعد ذلك إلى المناطق المجاورة عام ١٨٢٩. وظلّت علاقتهم متينة وقوية مع نساطرة إيران. وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر توجه الأسقف النسطوري (شيلمون آراجان) من إيران إلى روسية حيث زار حاكم القفقاس (فورتنسوف) وطلب إليه الموافقة على انتقال النساطرة في إيران إلى منطقته، إلاَّ أن الحاكم المذكور رفض هذا الطلب وكتب إلى وزير الخارجية الروسي نيسلرود رسالة قال فيها: «إنَّنا لا نستطيع السماح للنساطرة بالانتقال إلى القفقاس ولكننا يجب أن نبقى على علاقات طيّبة معهم كما ينبغي فرض حمايتنا عليهم أمام الحكومة الإيرانية من أجل كسب ثقتهم وولائهم سيكونون ذوي فائدة كبيرة لنا في المستقبل»(٤٨).

وقد عرض بطريرك النساطرة على الحكومة القيصرية مساعدة عسكرية في أثناء حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦م) وطلب إليها المفاوضة بشأن انضمام الكنيسة النسطورية إلى الكنيسة السلافية الروسية. وفي عام ١٨٩٨ م ذهب القس (ماريونان) إلى بطرسبورغ ممثلاً عن بطريرك النساطرة فاستقبل بحفاوة هناك ووقع اتفاقاً يقضي بانضمام ثلاثين ألف نسطوري إلى الكنيسة السلافية الروسية. وعلى إثر ذلك وصلت أورمية في تموز ١٨٩٨ بعثة كنسية روسية فاستقبلت البعثة بحفاوة من قِبَل نساطرة إيران وحازت نجاحاً في إنجاز مهمتها مما حمل الكنيسة السلافية الروسية على تأسيس مقر دائم لها في أورمية، فأثار ذلك شكوك الدول الغربية إذ اعتبرت هذه الخطوة مقدمة لبسط النفوذ الروسي على إيران.

وفي مطلع القرن العشرين بعد الانقلاب الذي أطاح بحكم السلطان عبد الحميد طلب المار شمعون بنيامين بطريرك النساطرة من السلطات الروسية في إيران فرض حماية روسية للنساطرة وتدخلها من أجلهم، إلاَّ أن روسيا خشيت أن يثير ذلك احتجاج الدول الغربية، لذلك لم يُقابَل طلب البطريرك بالإيجاب. ولكن في الوقت نفسه نشطت البعثة التبشيرية الروسية في بث دعايتها بين النساطرة فانضم بين سنة ١٩١١ و١٩١٤ عدد كبير من النساطرة في كردستان

---

(٤٨) ماتفييف ومار يوحنا، المرجع المار الذكر، ص ٢٣.

إيران وتركية إلى الكنيسة الروسية. ففي تقرير بعث به رئيس البعثة الأسقف سيرجي عن أعمال البعثة عام ١٩١٢ قال: «إن التبشير بالمذهب السلافي يجب أن يسير متوازناً مع دعم النفوذ الروسي في كردستان وإلاّ فلا يمكن كسب المسيحيين إلى كنيستنا»(٤٩).

١٨ ـ البعثات الإنكليزية والنساطرة:

لقد سبقت الإشارة إلى أن الإنكليز كانوا أوَّل مَن ابتدع الفكرة القائلة بأنَّ النساطرة هم أحفاد الآشوريين فأطلقوا عليهم تسمية (آثوريين) بمعنى آشوريين تمهيداً لتشكيل دولة آثورية ذات حكم ذاتي في منطقة آشور القديمة بلد أجدادهم على حد قولهم. فقد كان أول مَن قال بهذه الفكرة المنقب البريطاني لايارد فذكر في كتابه «نينوى وبقاياها» الذي نشره عام ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩. «إن النساطرة وبقايا نينوى صنوان إنهم الصفوة الآشورية التي تمتاز بالكيف وليس بالكم وطالب إنقاذهم من الانقراض على يد الأكراد»، وفي السنة نفسها قالت «مجلة الشهر الجديد (The New Monthly Magazine) اللندنية في عددها رقم ٨٧ ـ ١٨٤٩ ـ ٣٤٤ إنه يجب عمل شيء لإنقاذ صفوة طائفة مسيحية لها ماضيها القيّم المجيد، إن هي إلاّ حفيدة الآشوريين العظام(٥٠).

وقد تدخلت بريطانيا لدى الباب العالي بحجة أن مصلحته تقضي بمساعدة البطريرك خشية أن يضع نفسه وشعبه تحت حماية فرنسا وذلك تحت ستار الكاثوليكية. فكتب وزير الخارجية ايرل كلارندون عام ١٨٥٧ للسفير البريطاني السير ستراد فورد كانينغ: «إن حكومة صاحبة الجلالة تود أن تعلم بسرور بالغ مدى نجاح الجهود التي يمكن أن تبذلوها لمصلحة الطائفة المضطهدة وبالتالي ما هي أمانيها». وعلى إثر ذلك أرسل بطريرك النساطرة مباشرة عريضة للملكة فكتوريا اطلع عليها مجلس اللوردات ومجلس العموم فقُوبلت باهتمام بالغ في الأوساط الحكومية البريطانية، فكتب اللورد راسل رسالة إلى ممثل بريطانيا لدى الباب العالي قال فيها: «بلّغ علي باشا أن سعادة النساطرة وخيرهم أمر يهم جداً حكومة صاحبة الجلالة وعليك أن توعز له بوجوب اتخاذ تدابير فورية لرفع الظلم عنهم». وعلى الأثر قام قنصل بريطانيا في ديار بكر بزيارة مناطق النساطرة ليتفقد

---

(٤٩) المرجع السابق، ص ٢٣ ـ ٢٧.

(٥٠) ايشو مالك خليل جوارو، ترجمة سليم واكيم، ص ١٥٣.

أحوالهم ويتأكَّد من مضمون ما جاء في العريضة التي بعثوا بها إلى ملكة بريطانيا[٥١].

وبناء على طلب قدَّمه بطريرك النساطرة إلى رئيس أساقفة كنتربري عام ١٨٤٣ حول تقديم مساعدة للشعب النسطوري المسيحي أرسل رئيس الأساقفة عام ١٨٦٦ م بعثة تمهيدية تمثل الكنيسة الأنكليكانية لدراسة الوضع فقابلت البعثة البطريرك في مقره في منطقة جوله مرك كما قابلت المطران وثمانية من الأساقفة في تركيا وثلاثة في إيران. وقد وجدت البعثة أن الشعب جاهل جهلاً مطبقاً وحتى الأساقفة لا يحسنون القراءة والكتابة، فهم أعرف بأقسام البندقية من معرفتهم بفلسفة الدين، فيسود مجتمعهم خرافات وطقوس عديمة المعنى، وجملة أن حياتهم الروحية على أدنى مستوى من الانحطاط. ومع ذلك فهم يتفانون من أجل معتقدهم الديني. وبعد مرور بعض الوقت على عودة هذه البعثة أرسل رئيس أساقفة كنتبري في عام ١٨٨٦ بعثة دائمة برئاسة كوتس (Cutts) إلى النساطرة في جبالهم واستقرت في حيكاري. ففي كتاب وجهه رئيس أساقفة كنتبري إلى بطريرك النساطرة قال فيه: «إن الهدف من آرسال البعثة هو تدعيم الكنيسة القديمة والاستنارة بها. . ولم تستهدف تحويل أي فرد من القطيع النسطوري من كنيسته إلى بدع جديدة وغريبة عنه»[٥٢] وقد عيّن رئيس أساقفة كنتبري المبشر البريطاني الدكتور ويليام براون (Dr. W. Brown) مستشاراً مرافقاً للبطريرك في مقره في قوجانس، وقد ظلَّ الدكتور براون هذا ملازماً للبطريرك خمساً وعشرين سنة وصَحِب بطريركين متعاقبين حتى توفي سنة ١٩١٠[٥٣]. وقد كتبت المس بيل في تقريرها الذي رفعته إلى الحكومة البريطانية سنة ١٩٢٠ عن العراق في العهد البريطاني تقول: «وكانت سياستنا قبل الحرب تُبدي ميلاً لحماية الكنيسة النسطورية فأرسلنا بعثة تُدعى بعثة رئيس أساقفة كنتربري للنسطوريين ومن جهة أخرى كان وجود بعثة دومينيكية مع مدرستها ومستشفاها في الموصل يشجع في الميل في الاتجاه إلى فرنسا»[٥٤]. واستمر الانكليز يواصلون ارتباطاتهم الودية مع النساطرة، وفي سنة ١٩١٨ وعدوهم بتأسيس دولة مستقلة لهم بشرط استمرارهم

(٥١) المرجع السابق ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٥٢) Stafford, op. cit., pp. 23-24.

(٥٣) ويكرام، «مهد البشرية» الترجمة العربية ص ٢٤٦.

(٥٤) «فصول من تاريخ العراق القريب بين سنتي ١٩١٤ و١٩٢٠»، ترجمة جعفر خياط بيروت ١٩٤٩، ص ٧٣ ـ ٧٤.

في الحرب ضد تركيا وخصّصوا راتباً شهرياً مقداره ٧٥ ألف جنيه إسترليني إلى البطريرك مقابل ولاء النساطرة للانكليز[١٥٤].

١٩ ـ البعثات الأمريكية والنساطرة:

وفي عام ١٨٢٩ أرسل مكتب البعثات الأجنبية الأمريكي مبعوثين إلى مناطق سكن النساطرة وهما (سميث) و(داويت) اللذان وصلا تركيا في ١٨٣٠. وكانت هذه البعثة استطلاعية تهدف إلى التعرُّف على حياة المجتمع النسطوري عن كثب بغية النظر في إمكانية إقامة بعثات امريكية دائمة في مناطقهم. فأرسل المكتب إثر ذلك بعثة برئاسة (بيركنس) إلى منطقة أورمية في إيران في ١٨٣٢، وأسّست فيها مدرسة داخلية للأولاد في عام ١٨٣٨، ثم أعقبتها بمدرسة أخرى للبنات. وقد جلبت البعثة مطبعة خاصة لها وهي أول مطبعة بحروف سريانية. فقام بيركنس بدراسة اللغة السريانية وبخاصة اللهجة التي يتكلم بها النساطرة، فترجم العهد الجديد إلى هذه اللهجة في عام ١٨٤٦ وبعد مضي عشر سنوات أنجز ترجمة العهد القديم. وكتب المستر استودارد لأول مرة قواعد اللغة السريانية (بالإنجليزية). ومنذ سنة ١٨٣٧ وحتى سنة ١٨٧٣ صدر في إيران ١١٠ آلاف مطبوع دعائي بلهجة النساطرة، كما أصدر المبشرون مجلة باسم (زازيري دبارا) أي أشعة النور تبحث في شؤون النساطرة الدينية والاجتماعية وقد أدخل الأمريكان في مناهج تعليمهم عدا الدين الجغرافيا والتاريخ العام والأدب واللغات الإنكليزية والسريانية والفارسية والتركية[٥٥] وقد زاحمهم بعد ذلك الفرنسيون إثر وصول الآباء اللعازاريين إلى أذربيجان في سنة ١٨٤٠ حيث فتحوا إرساليات في خسراوا وأورمية وأنشؤوا مدارس فيهما.

٢٠ ـ النساطرة بعد دخول البعثات الأجنبية إلى مناطقهم:

وقد كان لهذه البعثات الأجنبية وما خلفتها من منافسات وخلافات ما بينها وما بين الدول التي تدعمها أثر بالغ في تدهور الوضع العام في مناطق سكن النساطرة مما أدّى إلى توتر العلاقات بين الأكراد والنساطرة الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الحين في وئام ووفاق جنباً إلى جنب، إذ كان المبشرون يحرضون

(٥٤أ) ماتفييف ومار يوحنا، مصدر سابق، ص ٦٥ ـ ٧٥.

(٥٥) ماتفييف ومار يوحنا، مصدر سابق، ص ١٨.

الأكراد ضد النساطرة بإتلاف كتبهم ومخطوطاتهم السريانية القديمة لحملهم على نبذ طقوسهم النسطورية. كما أدّى الوضع إلى توتر العلاقات بين الولاة الأتراك والنساطرة إذ كان تواجد هذه البعثات الأجنبية سبباً في إثارة شكوك الأتراك الذين كانوا يخشون تدخل الدول الأجنبية في شؤون تركيا الداخلية بحجة حماية الأقليات المسيحية خاصة بعد أن أخذ النساطرة يتصلون بالدول الأجنبية مباشرة وطلب الحماية منهم.

ومن الأسباب التي كانت تبث بذور الشقاق بين الأكراد والنساطرة أن المبشرين كانوا يتحدون شعور الأكراد بفرض نفوذهم في المنطقة. ففي عام ١٨٤١ أنشأ المبشر الأمريكي الدكتور غرانت مدرسة كبيرة في مكان ظاهر من مدينة أشيتا النسطورية مما أثار قلق الأكراد من دخول الأجانب إلى منطقتهم التي كانت تعتبر ملكاً لهم لا يستطيع دخولها حتى الأتراك. فكان نتيجة لذلك أن هجم الشيوخ الأكراد على مقر البطريرك النسطوري وأحرقوه. ثم أعقب ذلك حادثة مفتعلة بين الأكراد والنساطرة كان النساطرة والأكراد ضحيتها وذلك على الرغم من العلاقات الحسنة التي كانت سائدة بين الطرفين حتى ذلك الحين. وهذه المصادمات وقعت بين الأكراد بزعامة بدرخان وبين النساطرة وقد دامت أربع سنوات (١٨٤٣ ـ ١٨٤٧ م)[٥٦].

٢١ ـ الصراع بين البعثات الأجنبية:

ولم يقتصر الصراع بين النساطرة من جهة وبين الأكراد والأتراك من الجهة الأخرى بل شمل صراعاً بين البعثات التبشيرية المختلفة المذاهب، وكان يجري كل ذلك على حساب النساطرة. فقد زار المبشر الإنكليزي بدجر (Badger) بطريرك النساطرة سنة ١٨٤٠ م فشرح له بأنّ المبشرين الأمريكيين يفسّرون آيات الكتاب المقدّس كما يحلو لهم ويذهبون إلى اختراع المبادئ الجديدة وهم أعداء للكنيسة انشقوا عنها وشوهوا التعاليم المسيحية وقد حث البطريرك على الاعتماد على الكنيسة الإنكليكانية لكي تزوده بإرشاداتها ومساعداتها الروحية والثقافية. وكان بدجر هذا يؤكّد حسن نية الكنيسة الإنكليكانية تجاه مسيحيي المشرق ورغبتها الأكيدة بأن تستعيد كنائس الشرق عزتها وكرامتها كفروع من الكرمة الصحيحة فأفاد قائلاً: «لقد نصحت البطريرك بألاّ يتعاون مع الأمريكيين وأفهمته

---

(٥٦) ماتفيف ص ٢١.

عن الهوة السحيقة الكامنة بين معتقدنا ومعتقدهم» فارتاح البطريرك إلى حديث بدجر الذي بحث معه إمكانية القيام بعمل ذي مغزى سياسي.

وفي تقرير بعث به بدجر إلى جمعية انتشار الإنجيل قال: «إن نور الله بك أمير حيكاري سلب النساطرة استقلالهم ولولا المساعدة المؤقتة التي يجري تقديمها إلى هؤلاء لأخضعهم الأكراد لشريعتهم التي هي شريعة الغاب» (كذا).

وقد حاول نور الله بك أمير حيكاري المصالحة والتعاون مع النساطرة فكتب إلى البطريرك أن يعيّن مكاناً يلتقيان فيه لفض الخلافات بينهما إلاً أن البطريرك اعتذر عن تلبية الطلب. ففسر الأمريكيون ذلك بأن بدجر اقترح على البطريرك بألاً يُقابل نورالله وأن يسأل مساعدة بريطانيا، وقيل أيضاً أن بدجر اقترح على البطريرك بأن يلجأ إلى الباب العالي المسنود من دولة نصرانية للقضاء على الأكراد المتمردين(٥٧).

هذا وبمقابل ذلك كان المبشرون الأمريكيون يحذرون البطريرك من التورط مع المرسلين الآخرين والتعاون مع كنائسهم.

٢٢ ـ الصراع السياسي بين الدول:

ومن أسباب توتر الوضع أيضاً الصراع السياسي بين الدول فقد سبقت الاشارة إلى أن النساطرة كانوا بوساطة بطريركهم يتصلون بالدول الأجنبية مباشرة يطلبون حمايتهم ففي ٢٧ أيار ١٨٦٨ بعث البطريرك رسالة إلى قيصر روسيا يطلب فيها منه التدخل لحمايتهم من اعتداءات الأكراد. ولما بلغ الخبر القنصلية البريطانية أسرعت في تحذير وزارة الخارجية بأن التجاء النساطرة إلى الروس يشكّل سابقة خطرة «لأن الروس لن يتورعوا في استغلال هذه المسألة الطائفية خدمة لمصالحهم في المنطقة. وبالتالي، في حال وقوع أي تباعد أو خصام بين تركيا وروسيا أو بين تركيا وفارس، فإنّه لا يمكن تجاهل قيمة مضايقة هذه العناصر المناوئة للحكومات المركزية بما فيها القبائل الكردية، ذلك نظراً لكونها تتمركز في مناطق جبلية متاخمة للحدود الروسية الفارسية

(٥٧) «الآشوريون في التاريخ» جمع ايشو مالك خليل جوارو، ترجمة وإشراف سليم واكيم، بيروت ١٩٦٢، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

ناهيكم عن عددها وروحها العسكرية عند الاقتضاء».

وأفاد تقرير صادر عن القنصلية أيضاً بأنَّ جبل النساطرة باستطاعته أن يجنّد ١٣ ألف رجل عند الحاجة قد يكونون أكبر معين لأي فرقة روسية تحاول القيام بأي عملية حربية من جهة (وان) لاحتلال موش أو ديار بكر، هذا إذا أحرزت روسيا على عطف هؤلاء».

وفي ٣٠ نيسان ١٨٧٧ كتب لايارد إلى يرل درباي سكرتير الخارجية البريطانية يلفت نظره «إلى خطورة الموقف إذ أن على بريطانيا أن تقدّر تأثير ضم أرمينيا إلى روسيا على مستعمراتها في الهند بحيث أن روسيا ستستولي عندئذ على منطقة آسيا الصغرى برمتها بما فيها وادي الفرات ودجلة».

وقبيل احتلال روسيا جزءاً كبيراً من شرقي تركيا (١٨٧٧ ـ ١٨٧٩ م) صرَّح قيصر روسيا «أن ليس لروسيا مخططات استعمارية لا بالنسبة للهند ولا بالنسبة للقسطنطينية وإنه لمن مصلحة الطرفين أن يسود السلم ويطرأ تحسين في وضع النصارى في الامبراطورية العثمانية، أمَّا روسيا فإنَّها تفضّل العمل على الصعيد الأوروبي، ولكن في حال بقاء أوروبا مكتوفة اليدين فستضطر بلاده إذ ذاك إلى التدخل».

وفي أعقاب مؤتمر برلين الذي نجم عنه توقيع معاهدة جديدة بين روسيا وتركيا نصت على وجوب قيام تركيا بإصلاحات في أراضيها الآسيوية بما فيها أرمينيا وقررت بريطانيا هي الأخرى أن تسهم في تنفيذ الإصلاح بواسطتها فعقدت معاهدة دفاعية مع تركيا على أساس أن تحمي بريطانيا النصارى في الأمبراطورية العثمانية وأن تساعد تركيا ضد أي هجوم روسي على أراضيها مقابل أن تعطيها تركيا جزيرة قبرص ليرابط جيشها فيها وتكون دوماً على أهبة الاستعداد لنجدة تركيا فيما إذا تعرّضت هذه الأخيرة لأي هجوم روسي».

ولما أبلغت بريطانيا فرنسا عن مضمون معاهدة قبرص وغاياتها، قالت «بأنَّ حكومة صاحبة الجلالة لا يمكنها أن تترك آسيا الغربية لقمة سائغة في متناول روسيا أنى شاءت لأنَّ انتصار روسيا في الاستيلاء على قلعة الكارس تمكنها من احتلال كل المنطقة الواقعة بين البحر وتخوم فارس. إن رغبة حكومة صاحبة الجلالة ومصلحتها في توطيد الاستقرار في المنطقة وإبقائها على وضعها الحاضر شيء هام جداً بالنسبة لها، لذا اضطرت إلى التحالف مع تركيا وهي عازمة على الأخذ بالتزامات المعاهدة، هذا إذا ما أقدمت روسيا على تخطّي الأراضي

الواردة فيها(٥٨).

٢٣ ـ النسطورية تصمد في معقلها في جبال حيكاري:

لقد تعرضت الكنيسة النسطورية بمررو الزمن إلى أحداث لغير صالحها أدَّت إلى توقف نموها وازدهارها بل تقلصها واضمحلالها بعد أن بلغت أوسع انتشارها في العالم. فأوَّل صدمة شهدتها النسطورية كانت على يد المغول في اكتساحهم للشرق والفتك به، ثمَّ كان حدث الانقسام في الكنيسة النسطورية في القرن السادس عشر للميلاد صدمة أخرى مما أدَّى إلى تقلص عدد أعضاء الكنيسة النسطورية وإضعاف نفوذها فانضم أكثر النساطرة القاطنين في الموصل وفي القرى الواقعة في السهول المجاورة إلى الكنيسة الكاثوليكية مندفعين بمغريات مشجعة، منها ما كانت تتمتع به الكنيسة الكاثوليكية من إمكانيات مالية ووسائل التعليم والدراسة فضلاً عن الحماية التي كانت تتمتع بها هذه الكنيسة من قبل القنصلية الفرنسية(٥٩).

وهكذا تكوَّنت طائفة جديدة باسم الكلدان المتحدين لهم كنيستهم الخاصة بهم(٦٠)، فنصب البابا اينوسنت الحادي عشر (Innocent) في سنة ١٦٨١ ميلادية عليها بطريركاً هو المار يوسف الأسقف النسطوري لديار بكر الذي كان قد اختلف مع بطريرك النساطرة(٦١). وبعد حوالى مائة عام انشق المار اليا الأسقف النسطوري في منطقة الموصل على الكنيسة النسطورية وصبأ إلى المذهب الكاثوليكي وانضم إلى طائفة الكلدان المتحدين(٦٢) أما النساطرة في منطقة جبال حيكاري فبقوا صامدين متمسكين بالكنيسة النسطورية وبطقوسها وهم الذين حافظوا عليها وعلى لغتهم السريانية فانفصلوا عن الموصل التي صبأت إلى الكثلكة وأسسوا كرسي بطريركي مستقل وراثي بزعامة البطريرك المار شمعون الثالث عشر (١٦٦٠ ـ ١٧٠٠ م) فاتخذ هذا البطريرك قرية قوجانس في سنجق حيكاري (ولاية وان التركية) مركزاً لبطريركيته بزعامته الدينية والدنيوية(٦٣). وصار

---

(٥٨) «الآشوريون في التاريخ» جمع ايشو مالك جوارو، ص ١٥٥ ـ ١٥٨.

(٥٩) H.C. Luke «Mosul and its Minorities» London 1925, pp. 26-28.

(٦٠) انظر ما تقدم في الفقرة ١١ من هذا الفصل.

(٦١) Stafford, op. cit., p. 22.

(٦٢) Grant, op. cit., p. 170.

(٦٣) Luke, op. cit., p. 94.

هذا اللقب «المار شمعون» يطلق على كل مَن يتولى البطريركية على النساطرة.

ولم يقتصر التحوُّل عن النسطورية على نساطرة منطقة الموصل والقرى المجاورة من السهول بل شمل أيضاً النساطرة في شمال إيران، ففي سنة ١٨٩٨م انضم عدد من النساطرة في شمال إيران إلى كنيسة الأرثوذكس الروسية على يد المطران ماريونان من سوبورغان وأورمية، وتأسَّس مركز روسي للتبشير بين النساطرة في أورمية. وقد سبق للكنيسة النسطورية في الهند أن ارتبطت مع روما سنة ١٥٩٩ م، ثم انقسمت في سنة ١٦٥٣ م وانضم نصف أتباعها إلى كنيسة اليعاقبة.

وهكذا تمركزت النسطورية بعد أن تقلصت في عدد أفرادها وفي نفوذها في منطقة جبال حيكاري على رأسها المار شمعون الذي أصبح زعيم النساطرة الديني والدنيوي يرعى النسطوريين أينما كانوا.